فوائد وفرائد قرآنية

جزء الذاريات

اعداد

محمد بن خالد الخضير

خطيب جامع ابن حجر بالثقبة ومشرف تربوي

Khdair٩٠@yahoo.com

https://twitter.com/khdair٩٠

مقدمه

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيمًا لشأنه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه

أَمَّا بَعْدُ:

بين يديكم فوائد قرآنية من بعض الآيات من جزءِ الذاريات وأصلها دروس رمضانية كنت أقدمها بعد صلاة العصر في مسجد الصفا بالدمام (حي بترومين) في شهر رمضان المبارك من العام الهجري ١٤٣٧هـ، لأنه ثمة علاقة وطيدة ورباط متين بين القرآن وشهر الصيام ، تلك العلاقة التي يشعر بها كل مسلم في قرارة نفسه مع أول يوم من أيام هذا الشهر الكريم ، فيقبل على كتاب ربه يقرأه بشغف بالغ ، فيتدبر آياته ويتأمل قصصه وأخباره وأحكامه قال تعالى (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ)، وقد أمرنا الله سبحانه بتدبره وتفهمه: (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) وقال : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)، (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)

أسأل الله أن ينفع بها ويجعلها خالصة لوجهه ويجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهل وخاصته.

محمد بن خالد الخضير

Khdair٩٠@yahoo.com

https://twitter.com/khdair٩٠

سورة الذاريات: ١-١٤.

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ * وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ * قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ

موضوع السورة :

سورة الذاريات، وهي مكية، وموضوعها هو موضوع الآيات المكية غالباً، تقرير العقيدة، وترسيخها في القلوب، وكشف أدلتها، والرد على المخالفين،

تحدثت عن البعث وصحة وصدق ما جاء به محمد -صلى الله عليه وسلم-، وتحدثت عن جزاء المصدقين، وجزاء المكذبين، وما وقع لهم من العقوبات العامة المستأصلة، وما ينتظرهم بعد ذلك من عذاب الله -عز وجل-

وقد افتتح الله تعالى هذه السورة بهذا القسم العظيم وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً * فَالْحَامِلاتِ وِقْراً * فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً [الذاريات:١-٤] فأقسم بهذه الأشياء الأربعة، الرياح: وهي الذاريات، والسفن: وهي الجاريات، والسحاب: وهي الحاملات، والمقسمات: وهي الملائكة، وأقسم بها بصيغة الجمع ليكون أفخم وأوقع في النفس

والمقسمات، أربعة أشياء على صحة البعث والقيامة، وهذه الأشياء التي أقسم الله -تبارك وتعالى- بها عظيمة تدل على وحدانيته وربوبيته وعظمته، **فالذاريات: الرياح**، وهي لمن تأملها تدل على قدرة الله -عز وجل-، وعظيم تدبيره وتصريفه، فمنها ما يكون **ليناً سهلاً لطيفاً** تنعم به الأجسام، ومنها ما يكون **عنيفاً شديداً** يدمر كل شيء، كما قال الله -عز وجل- عن الريح التي أرسلها على قوم عاد: تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ سورة الأحقاف:٢٥ ففي صحيح مسلم عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال: **اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به**، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به، قالت وإذا تخيلت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا أمطرت سري عنه فعرفت ذلك في

وجهه، قالت عائشة فسألته فقال لعله يا عائشة كما قال قوم عاد فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا .

فمنها ما يأتي للنصر، وكما فعل الله –عز وجل– يوم الأحزاب حيث هزم المشركين الذين تجمعوا حول المدينة بالريح، ومنها ما يسوق السحاب، ومنها ما يلقحه، ومنها ما يلقح النبات، فهي أنواع كثيرة جداً،

فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ، المراد بها السحاب، تحمل المياه موقرة، أي: مثقلة محملة، قال الله تبارك وتعالى: {هو الذي يريكم البرق خوفًا وطمعًا وينشيء السحاب الثقال} فهي ثقيلة محملة بمياه عظيمة بحار، ولذلك تمطر فتجري الأرض أنهاراً بإذن الله – عز وجل – فالذاريات: الرياح، والحاملات: السحب، **والارتباط بينهما ظاهر**؛ لأن الرياح هي التي تثير السحاب وهي التي تلقح السحاب بالماء، قال الله تعالى: {وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه}

هذا السحاب الذي نراه معلقاً بين السماء والأرض، فهو كالقرب العظام، وقد صوره الله –عز وجل– بالجبال **مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ** سورة النور:٤٣، فهو آية عظيمة تسوقها الرياح ويصرفها الله –عز وجل– فتنزل حيث شاء الله، بالقدر الذي أراده الله –تبارك وتعالى– لا يزيد ولا ينقص

{فالجاريات} هن السفن **{يسراً}** أي: بسهولة، قال الله تبارك وتعالى: {إنا لما طغا الماء حملنكم في الجارية} أي: في السفينة، هذه السفينة ميسرة بإذن الله عز وجل بما يسره الله تعالى من الرياح الطيبة، وكلما كانت الريح مناسبة كان سيرها أيسر، ذه الجواري في البحر كما قال الله –عز وجل– كالأعلام: وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ سورة الشورى:٣٢، والعلم هو الجبل، كالجبال طوابق هائلة ضخمة كبيرة كما نشاهد، تجري في هذا الماء الرقيق، فتمخر فيه، ويتنقل الناس، وتحمل البضائع التي تعجز عن حملها الدواب، كل هذا آية من آيات الله –تبارك وتعالى

والارتباط بين هذه الثلاثة أن الرياح تحمل الأمطار، وأن السحب تحمل الأمطار، فتنزل إلى الأرض، فيكون الرزق للمواشي والآدميين، والجاريات أي السفن، هي أيضاً تحمل الأرزاق من جهة إلى جهة، فلا يمكن أن تصل الأرزاق من جهة إلى جهة أخرى بينها وبينها بحر إلا عن طريق السفن.

{فالمقسمات أمراً} وهم الملائكة، **{أمراً}** التي تقسم الأمر، أي: شئون الخلق، ويحتمل أن يكون {أمراً} أي: بأمر الله، والمعنى صحيح على كلا التقديرين، فإن الملائكة عليهم الصلاة والسلام يقسمون ما يريد الله – عز وجل – من أرزاق الخلق وغيرها بأمر الله – عز وجل –

منها ما ينزل بالأرزاق والأقوات، ومنها ما ينزل بالعذاب، ومنها ما ينزل بالوحي، ومنها من يسوق السحاب، كما جاء في الحديث بأن الرعد ملك من الملائكة، فالبرق سوطه، والرعد صوته يزجر السحاب، وهكذا وكلهم الله –عز وجل– بأمور يجري بها تصريف أمر هذا العالم وفق إرادته –جل جلاله– وحكمته

والمقسم عليه: {إنما توعدون لصادق} يعني ما وعدكم الله تعالى فهو وعد صادق، والصادق هو المطابق للواقع، فأقسم الله – عز وجل – بهذه المخلوقات على إنما نوعد صادق. فلابد أن يقع إذا وقع ما نوعد، وهوالبعث يوم القيامة يتلوه الجزاء، ولهذا قال: **{وإن الدين لواقع}** الدين يعني الجزاء، أي الجزاء لابد أن يقع، لأن الله على كل شيء قدير. وقد قال الله تعالى: {يوم تشقق الأَرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير}

<u>**إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ**</u>، وذكَّرنا بالميعاد، ذكرنا بموعدنا مع الله، ذكرنا بما ستؤول إليه الأمور، وأقسم عليه، وهو أصدق القائلين سبحانه وتعالى، وأبر المقسمين، وأكد ذلك بسائر المؤكدات –الموت–، اللقاء مع الله، الرحيل عن هذه الدار الفانية، الانفصال عن الدنيا، ومع هذا القسم، وهذا التأكيد، فأكثر النفوس في غفلة عنه؛ لا تستعد له، ولا تأخذ له أُهبة، والمستعد له الآخذ أُهبة لا يعطيه حقه إلا القليل بعد القليل، فأكثر الخلق.

{والسماء ذات الحبك} السماء معروفة، ذات: بمعنى صاحبة **{الحبك}** يعني الطرق، أي: أنها من حسنها كأنها ذات طرق محبوكة متقنة، كما يكون ذلك في جبال الرمل، يضربها الهواء فتكون مضلعة، إذن السماء كذلك **{إنكم لفي قول مختلف}** {إنكم} الخطاب للكافرين {لفي قول مختلف} يعني يختلف بعضه عن بعض، فبعض الكفار قالوا للرسول عليه الصلاة والسلام: إنه مجنون، وبعضهم قالوا: إنه ساحر، وبعضهم قالوا: إنه كاهن، وبعضهم قالوا: إنه شاعر، وبعضهم قالوا: إنه كذاب، فهم مختلفون في النبي صلى الله عليه وسلم، واختلاف الأقوال يدل على كذبها وفسادها، وكلما رأيت قولاً مختلفاً متناقضاً فاعلم أنه باطل وليس بصحيح؛ لأن الحق لا يمكن أن يتناقض، فهؤلاء المكذبون للرسول عليه الصلاة

والسلام اختلفوا هذا الاختلاف **{يؤفك عنه من أفك}** بمعنى يصرف فهؤلاء المكذبون للرسول عليه الصلاة والسلام عندهم فصاحة وبلاغة وتمويه ودجل، فيصرفون الناس

سورة الذاريات: ١٠-٢٣.

والسماء ذات الحبك (٧) إنكم لفي قول مختلف (٨) يؤفك عنه من أفك (٩) قتل الخراصون (١٠) الذين هم في غمرة ساهون (١١) يسألون أيان يوم الدين (١٢) يوم هم على النار يفتنون (١٣) ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون (١٤))

{قتل الخراصون} {قتل} كثير من المفسرين يفسرها بلعن، واللعن هوالطرد والإبعاد عن رحمة الله، {الخراصون} جمع خراص، وهو الذي يتكلم بالظن والتخمين والارتياب والشك، لأنه منغمر في الجهل والسهو والغفلة، ولهذا وصفهم بقوله: {الذين هم في غمرة ساهون} أي في غمرة من الجهل، قد أحاط بهم الجهل من كل جانب، {ساهون} : غافلون، لا يحاولون أن يقبلوا على ما أنزل الله على رسله – عليهم الصلاة والسلام – ومن جهلهم أنهم {يسئلون أيان يوم الدين} ، سؤال استبعاد وإنكار يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣)ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) يوم الجزاء، يوم يُعذَّبون بالإحراق بالنار، ويقال لهم: ذوقوا عذابكم الذي كنتم به تستعجلون في الدنيا.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ *كَانُوا قَلِيلا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ سورة الذاريات:١٥-٢٣.

{إن المتقين في جنات وعيون} المتقون هم الذين اتقوا الله، والتقوى ترد في القرآن الكريم على وجوه متعددة: بالوصف تارة، وبالفعل تارة، وبالأمر تارة، وتارة تكون مضافة إلى الله، وتارة تكون مضافة إلى العقوبة وغير ذلك، مما يدل على أن التقوى شأنها عظيم في الإسلام، وليست التقوى قولاً يقال باللسان،

بل هي قول يتبعه فعل وتطبيق، فإن سألتم ما هي التقوى؟ قلنا: التقوى كلمتان: فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ((التقوى هي الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والقناعة بالقليل ، والإستعداد ليوم الرحيل)).

قال ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى : ((اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ)) (آل عمران :١٠٢) أن يطاع فلا يعصي ويذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر.

وقال طلق بن حبيب رحمه الله : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله

سئل أبوهريرة رضي الله عنه عن التقوى فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك ؟قال : نعم ، قال : فكيف صنعت؟ قال : إذا رأيت الشوك عزلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه ، قال : ذاك التقوى .

خل الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقي

واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].فهذه الآية دلت على أن الغاية الكبرى من هذا الصيام هو حصول تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فالصائم الذي لم يحقق تقوى الله في صيامه قد خسر الثمرة من هذا الصيام الذي لم يشرعه الله لمجرد الامتناع عن الطعام والشراب والشهوة قال : ((من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه))

آخذين ما آتاهم ربهم أي: آخذين ما أنعم ومنَّ الله به عليهم في الجنان.

إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ ، أي: في الحياة الدنيا، مُحْسِنِينَ أي يؤدّون العمل بإحسان. وحقيقة الإحسان قد أخبر عنها النبي e في الحديث المشهور حديث عمر أو حديث جبريل عندما سأله رسول الله e قال: «ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»

والإحسان كما يكون في معاملة الخالق يكون أيضاً في معاملة المخلوق ولذلك جاءت الآيات مبيّنة الإحسان مع الخالق والإحسان مع المخلوق فقال الله (كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) هذا إحسان في

معاملة الخالق (وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) هذا إحسان في معاملة الخالق (وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) هذا إحسان في معاملة المخلوق،

{كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون} أي لا ينامون إلا قليلاً: وماذا يصنعون في هذه اليقظة؟ يصنعون ما ذكره الله تعالى في سورة المزمل: {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطآئفة من الذين معك} . فهم ليسوا يسهرون على اللهو واللغو، أو يستيقظون على مثله، ولكنهم يقل نومهم للتفرغ لطاعة الله عز وجل، تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا سورة السجدة:١٦

وقال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة انجفل الناس إليه، فكنت فيمن انجفل، فلما رأيت وجهه -صلى الله عليه وسلم- عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: (يا أيها الناس، أطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام).

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن في الجنة غرفاً يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها)، فقال أبو موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه-: لمن هي يا رسول الله؟ قال: (لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وبات لله قائما والناس نيام).

{وبالأَسحار هم يستغفرون} .الأسحار: جمع سحر، وهو آخر الليل، {هم يستغفرون} ، يعني يسألون الله المغفرة، وهذا من حسن عملهم وعدم إعجابهم بأنفسهم، وكونهم يشعرون بأنهم وإن اجتهدوا فهم مقصرون، فيستغفرون الله بعد فعل الطاعة جبراً لما حصل فيها من خلل، ويشرع في نهاية العبادات أن يستغفر الإنسان ربه مما قد يكون فيها من خلل، فبعد الصلاة يستغفر الإنسان ربه ثلاثاً،

وهذا مما يدل على معرفتهم بأنفسهم، وأنهم يرون أنفسهم مقصرين، خلافاً لما يفعله بعض الناس الآن إذا تعبد لله تعالى بأدنى عبادة شمخ بنفسه وأدل على الله تعالى بها، وظن أنه من عباد الله الصالحين، صحيح أن الإنسان ينبغي أن يرجو ربه إذا أنعم الله عليه بطاعة أن يقبلها، لكن كونه يرى أنه قد أتم كل شيء. فهذا يخشى أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

(إن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيعطى سؤله؟ حتى يطلع الفجر).

وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخباراً عن يعقوب -عليه السلام-: أنه قال لبنيه: سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي قالوا: أخرهم إلى وقت السحر.

{وفي أموالهم حق للسآئل والمحروم} في أموالهم كلها سواء الأموال الزكوية، أو غير الزكوية فيها حق للسائل والمحروم، إذا أتاهم سائل أعطوه، وإذا رأوا محروماً أي ممنوعاً من الرزق، وهو الفقير أعطوه، فمالهم قد أعدوه لما يرضي الله – عز وجل – من السائلين والمحرومين وغير ذلك من الإنفاق المشروع.

وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ أي: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما جُبلوا عليه من الإرادات والقُوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحِكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه؛ ولهذا قال: وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ، قال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة.

الآيات التي في الأرض والآيات التي في الأنفس لا يمكن حصرها، ولو بقي الناس يعددون هذا لاستغرق منهم أوقاتاً طويلة، وكلما أمعن الإنسان النظر ودقق ظهر ولاح له أشياء وأشياء عجيبة،

{وفي السماء رزقكم وما توعدون} ذهب كثير من العلماء أن المراد بالرزق هنا المطر، لأن الله تعالى قال: {هو الذي يريكم ءاياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب} . وسمي المطر رزقاً؛ لأنه سبب للرزق، فإذا أنزل الله المطر أخرجت الأرض الماء والمرعى، متاعاً لنا ولأنعامنا، وهذا رزق، كم من ناس يكون رزقهم على ما ينزل من المطر من الزروع والحشيش والمياه وغيرها،

(فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء ، كائن لا محالة ، وهو حق لا مرية فيه ، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون

قصة إبراهيم مع الملائكة

ذكر الله عز وجل في كتابه عن بشارته لخليله إبراهيم عليه السلام على كبره بالولد الثاني وهو اسحاق عليه السلام من زوجه سارة التي كانت عجوزا وعقيما لا تلد ، أخبر الله تعالى عن ذلك في عدة مواضع من كتابه العزيز وفي كل موضع يبيّن عز وجل الله البشارة بكلام مؤثّر يزداد المؤمن فيه أيمانا ويقينا بقدرته سبحانه وتعالى ، يقول الملك جل في عُلاه :"**وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَاوَيْلَتَى آلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ*فَلَمّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرّوْعُ وَجَآءَتْهُ الْبُشْرَىَ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوّاهٌ مّنِيبٌ * يَإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَآ إِنّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبّكَ وَإِنّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ**"

وقال عز وجل : "**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ**

مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ "

لم يكن إبراهيم داعية إلى التوحيد فحسب، وإنما كان إنساناً كريماً، يكرم الضيف، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كان أول من أضاف الضيف إبراهيم)ومعلوم خبر الملائكة الذين أتوا إليه، وكانوا يريدون القضاء على قوم لوط الذي كان من آل إبراهيم، موحداً مثله،

ذكر بعض ما تضمنته هذه القصة من الحكم والأحكام الشيخ السعدي في تفسيره:

منها: أن من الحكمة، قص الله على عباده نبأ الأخيار والفجار، ليعتبروا بحالهم وأين وصلت بهم الأحوال.

ومنها: فضل إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، حيث ابتدأ الله قصته، بما يدل على الاهتمام بشأنها، والاعتناء بها.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن إبراهيم الخليل، الذي أمر الله هذا النبي وأمته، أن يتبعوا ملته، وساقها الله في هذا الموضع، على وجه المدح له والثناء.

ومنها: أن الضيف يكرم بأنواع الإكرام، بالقول، والفعل، لأن الله وصف أضياف إبراهيم، بأنهم مكرمون، أي: أكرمهم إبراهيم، ووصف الله ما صنع بهم من الضيافة، قولا وفعلا ومكرمون أيضًا عند الله تعالى.

ومنها: أن إبراهيم عليه السلام، قد كان بيته، مأوى للطارقين والأضياف، لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان، وإنما سلكوا طريق الأدب، في الابتداء السلام فرد عليهم إبراهيم سلامًا، أكمل من سلامهم وأتم، لأنه أتى به جملة اسمية، دالة على الثبوت والاستمرار.

ومنها: مشروعية تعرف من جاء إلى الإنسان، أو صار له فيه نوع اتصال، لأن في ذلك، فوائد كثيرة.

ومنها: أدب إبراهيم ولطفه في الكلام، حيث قال: { قَوْمٌ مُنْكَرُونَ } ولم يقل: " أنكرتكم " [وبين اللفظين من الفرق، ما لا يخفى].

ومنها: المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها، لأن خير البر عاجله [ولهذا بادر إبراهيم بإحضار قرى أضيافه].

ومنها: أن الذبيحة الحاضرة، التي قد أعدت لغير الضيف الحاضر إذا جعلت له، ليس فيها أقل إهانة، بل ذلك من الإكرام، كما فعل إبراهيم عليه السلام، وأخبر الله أن ضيفه مكرمون.

ومنها: ما من الله به على خليله إبراهيم، من الكرم الكثير، وكون ذلك حاضرًا عنده وفي بيته معدًا، لا يحتاج إلى أن يأتي به من السوق، أو الجيران، أو غير ذلك.

ومنها: أن إبراهيم، هو الذي خدم أضيافه، وهو خليل الرحمن، وكبير من ضيف الضيفان.

ومنها: أنه قربه إليهم في المكان الذي هم فيه، ولم يجعله في موضع، ويقول لهم: " تفضلوا، أو ائتوا إليه " لأن هذا أيسر عليهم وأحسن.

ومنها: حسن ملاطفة الضيف في الكلام اللين، خصوصًا، عند تقديم الطعام إليه، فإن إبراهيم عرض عليهم عرضًا لطيفًا، وقال: { أَلا تَأْكُلُونَ } ولم يقل: "كلوا " ونحوه من الألفاظ، التي غيرها أولى منها، بل أتى بأداة العرض، فقال: { أَلا تَأْكُلُونَ } فينبغي للمقتدي به أن يستعمل من الألفاظ الحسنة، ما هو المناسب واللائق بالحال، كقوله لأضيافه: " ألا تأكلون " أو: "ألا تتفضلون علينا وتشرفوننا وتحسنون إلينا " ونحوه.

ومنها: أن من خاف من الإنسان لسبب من الأسباب، فإن عليه أن يزيل عنه الخوف، ويذكر له ما يؤمن روعه، ويسكن جأشه، كما قالت الملائكة لإبراهيم [لما خافهم]: { لا تَخَفْ } وأخبروه بتلك البشارة السارة، بعد الخوف منهم.

ومنها: شدة فرح سارة، امرأة إبراهيم، حتى جرى منها ما جرى، من صك وجهها، وصرتها غير المعهودة.

ومنها: ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة، من البشارة، بغلام عليم.

فتأمّل رحمك الله قول الملائكة : " أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ" لتعلم أنه ليس هناك أمر مُستبعد في أفعاله سبحانه وتعالى ،فكل كرب مهما اشتد وتلبّد فإن فرج الله قريب وكلّ ذنب مهما عظم وتراكم فإن عفو الله واسع قال عز وجل : "وتوكّل على الحيّ الذي لا يموت وسبّح بحمده".

سورة الذاريات: ٥٠.

{فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ}(٥٠) سورة الذاريات.

هذه الآية من أعظم آيات القرآن الكريم ، تجمع معاني الخوف والرجاء : الخوف من الله تعالى ، واللجوء إليه سبحانه ، إذ لا منجا منه إلا إليه عز وجل ، أمر بالفرار منه إليه ليدل العباد على أنه أرحم بهم من كل من سواه ، وأنه عز وجل يريد بالعباد الرحمة والمغفرة . وفي " مدارج السالكين " (١/٤٦٩-٤٨١) للعلامة ابن القيم كلام مطول مفيد عن منزلة " الفرار " من منازل السائرين .

يقول الله تعالى : (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ) الذاريات/٥٠.

قال الإمام الطبري رحمه الله :" يقول تعالى ذكره : فاهربوا أيها الناس من عقاب الله إلى رحمته بالإيمان به ، واتباع أمره ، والعمل بطاعته (إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ) يقول : إني لكم من الله نذير أنذركم عقابه ، وأخوّفكم عذابه الذي أحلَّه بهؤلاء الأمم الذين قصّ عليكم قصصهم ، والذي هو مذيقهم في الآخرة . وقوله : (مُبِينٌ) يقول : يبين لكم نذارته " انتهى." جامع البيان " (٢٢/٤٤٠)

وقال القرطبي رحمه الله :" لما تقدم ما جرى من تكذيب أممهم لأنبيائهم وإهلاكهم لذلك ، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : قل لهم يا محمد ، أي قل لقومك : (ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين) أي : فروا من معاصيه إلى طاعته .\

وقال ابن عباس : فروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم . وعنه : فروا منه إليه واعملوا بطاعته .(إني لكم منه نذير مبين) أي : أنذركم عقابه على الكفر والمعصية " انتهى." الجامع لأحكام القرآن " (١٧/٥٣-٥٤)

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله :

" لما دعا العباد للنظر لآياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه ، أمر بما هو المقصود من ذلك ، وهو الفرار إليه أي : الفرار مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا ، إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا ، فرار من الجهل إلى العلم ، ومن الكفر إلى الإيمان ، ومن المعصية إلى الطاعة ، و من الغفلة إلى ذكر الله ، فمن استكمل هذه الأمور فقد استكمل الدين كله ، وقد زال عنه المرهوب ، وحصل له نهاية المراد والمطلوب .

وسمى الله الرجوع إليه فرارًا : لأن في الرجوع لغيره أنواع المخاوف والمكاره ، وفي الرجوع إليه أنواع المحاب والأمن والسعادة والفوز ، فيفر العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره ، وكل من خفت منه فررت منه ، إلا الله تعالى ؛ فإنه بحسب الخوف منه ، يكون الفرار إليه ، (إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ) ؛ أي : منذر لكم من عذاب الله ، ومخوف بَيِّنُ النذارة " انتهى." تيسير الكريم الرحمن "

من خاف من شيء هرب وفرَّ منه، ومن خاف من الله هرب وفرَّ إليه... فكل شيء إذا خفت منه فررت منه، أما الله سبحانه فإذا خفت منه فررت إليه فلا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه سبحانه، لهذا كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم عند نومه وهو ما أمر به أحد أصحابه أن يقوله ويجعله آخر ما يقول قبل نومه: ((اللهم أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت)) وقال بعد ذلك: ((فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة)) متفق عليه من حديث البراء، فالإنسان إذاً حتى إذا خاف من الله فإنه يلجأ إليه، فالخوف من الله والرجاء في الله، فإذا خفت من عذابه فررت إلى رحمته، وإذا خفت من سخطه فررت إلى رضاه إلى آخر هذه الصفات الإلهية الكريمة صفات الكمال والجلال.

{فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ}نعم إنه الفرار إلى الله، تفر إلى الله لأن خلفك عدوك إبليس، يسعى خلفك جاهداً بكل ما أوتي من قوة ليجعلك من أصحاب السعير، {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ}(٦) سورة فاطر، ومع الأسف هناك من الناس من عكس طريق سيره فسار باتجاه عدوه ففرح به ذلك العدو، واحتضنه فأصبحت ترى شيطاناً في ثوب إنسان ولمثل هذا يقول العليم الحكيم: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} (٢٠) سورة الحديد

من مظاهر الفرار إلى الله أن يتبرأ الإنسان من حوله وقوته ويعتمد على حول وقوة الله سبحانه، يقول كما في صحيح الجامع من حديث أبي هريرة: ((أكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها من كنوز الجنة)).

ومن مظاهر الفرار إلى الله سبحانه أن يكتفي المؤمن بالله فيما يعرض له من مخاوف وأخطار، وهذا ما علمنا إياه رسول الله أخرج الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله قال: ((كيف أنعمُ، وصاحب القرن قد التقم القرن)). والقرن معناه الصور، وصاحب القرن هو إسرافيل. ((كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنا الجبهة وأصغى السمع ينتظر متى يؤمر بالنفخ قالوا: كيف نصنع قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا)).

كما أنه من أجلى مظاهر الفرار إلى الله التوبة النصوحة إلى الله سبحانه: يقول تعالى: يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ تُوبُواْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفّرَ عَنكُمْ سَيّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لاَ يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءامَنُواْ مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلّ شَىْء قَدِيرٌ [التحريم:٨].

سورة الطور ١

وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤)

هذه السورة سورة الطور سورة مكية كما هو ظاهر من آياتها وموضوعاتها، فهي تتحدث عن الباطل وعن شبهات المبطلين ودحضها وردّها وإقامة الحق بآيات ألفاظها قوية وهي قصيرة، وفيها وعد ووعيد.

هذه السورة من سور القرآن سورة عظيمة تهز قلب الكافر قبل المسلم، ففي الصحيح من حديث جبير بن مطعم: أنه قدم المدينة في فداء أسرى بدر -وكان يومئذ كافراً-، فسمع النبي -عليه الصلاة والسلام- يقرأ في صلاة المغرب بسورة الطور، وأخبر عن نفسه أن قلبه كاد يطير من سماع هذه السورة.

خرج عمر رضي الله عنه يَعِسّ المدينة ذات ليلة، فمر بدار رجل من المسلمين، فوافقه قائما يصلي، فوقف يستمع قراءته فقرأ: وَالطُّورِ حتى إذا بلغ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ قال: قسمٌ -ورب

الكعبة– حق، فنزل عن حماره واستند إلى حائط، فمكث ملياً، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه.

{والطور وكتاب مسطور في رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور} هذه أشياء أقسم الله بها، الأول: الطور وهوالجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، فإن الله تعالى كلمه أول ما كلمه على جبل الطور، فكان لهذا الجبل من الشرف والفضل ما سبق به غيره من الجبال،

الطور هو : الجبل الذي يكون فيه أشجار ، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورا ، إنما يقال له : جبل .(ابن كثير)

(وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ) أي الكتاب الذي فيه كتابة مسطورة، وقد اختلف فيه هل هو اللوح المحفوظ؟ أو الكتب التي أنزلت على الأنبياء؟ وهذا أظهر لأن الله قال بعده (فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ) والرقّ هو الرقاع والجلود التي يُكْتب فيها. وقوله (مَنْشُورٍ) أي مقروء ومفتوح وليس مطوياً وهذا يدلّ على أن المقصود به ليس هو اللوح المحفوظ وإنما الكتاب الذي أُنزل على الأنبياء ويرجح ابن القيم والشنقيطي والشيخ ابن عثيمين رحمهم الله أن المقصود هو القرآن الكريم.

(والمراد بالمنشور يعني المفرق الذي يكون بأيدي كل قارىء، وهذا يصدق تماماً على القرآن الكريم، فإنه – ولله الحمد – بين يدي كل قارىء حتى الصغار من المسلمين يقرؤونه) ابن عثيمين

(والبيت المعمور) ثبت في الصحيحين أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال في حديث الإسراء – بعد مجاوزته إلى السماء السابعة – : " ثم رفع بي إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم " يعني : يتعبدون فيه ويطوفون ، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم كذلك ذاك البيت ، هو كعبة أهل السماء السابعة ؛ ولهذا وجد إبراهيم الخليل عليه السلام مسندا ظهره إلى البيت المعمور ؛ لأنه باني الكعبة الأرضية ، والجزاء من جنس العمل ، وهو بحيال الكعبة.

تصور منذ أن خلق الله الخلق إلى قيام الساعة يدخله يومياً سبعون ألف ملك لا يعودون إليه مرة ثانية، كم عدد الملائكة؟ كم عددهم؟ لا يحصيهم إلا الله –جل وعلا–، وجاء في الحديث حديث الأطيط

وهو معروف، مضعف عند جمع من أهل العلم ((أطت السماء وحق لها أن تأط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك ساجد أو قائم))،

وقيل: إن المراد بالبيت المعمور بيت الله في الأرض وهو الكعبة؛ لأنه معمور بالطائفين والعاكفين، والقائمين، والركع السجود.

{والسقف المرفوع} أقسم الله تعالى بالسقف المرفوع وهو السماء، قال الله تعالى: {الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها} وقال تعالى: {وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن ءاياتها معرضون} .

فالسماء سقف، والسماء مرفوعة، إذن فالسقف المرفوع هو السماء، وسماه الله سقفاً لأنه قد غمر جميع الأرض من جميع الجوانب، كما يغمر السقف الحجرة من جميع الجوانب، وإنما أقسم الله تعالى بالسماء لما فيها من الآيات العظيمة من نجوم وشمس وقمر، وإحكام وإتقان

{الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ} كلمة (مسجور) تحتمل معنيين:المعنى الأول: أنه المملوء ماء، واختاره ابن جرير ووجّهه بأنه ليس موقداً اليوم فهو مملوء

والمعنى الثاني: أن يكون بمعنى الموقد الذي يشتعل ناراً، يكون المعنى أنه مسجور يوم القيامة؛ لأنه الآن ليس بمسجور فيما نرى، وقد قال الله جل وعلا: وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ [التكوير:٦] أي: أوقدت.

ومن أهل العلم من يفسره بغير هذا، بعضهم يقول: الممسوك، المحبوس، فهو محبوس لا يفيض ولا يطغى فيغرق أهل الأرض،

ويمكن أن تكون عامة هذه المعاني صادقة عليه، فهو مملوء ويسجر في يوم القيامة، وهو محبوس؛ لئلا يفيض على الناس فيهلكهم ويغرق أهل الأرض، وهذا الوجه من الجمع وجه حسن مال إليه الحافظ ابن القيم -رحمه الله.

{إن عذاب ربك لواقع} هذا هو جواب القسم، وهذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم بخمسة أشياء، وإذا كان قسماً بخمسة أشياء صار كأنه أقسم عليها خمس مرات، والثاني: بأن، والثالث: باللام، {إن عذاب ربك لواقع} يعني لابد أن يقع عذاب الله الذي وعد يه، هذه والله جملة عظيمة مؤثرة، لكنها لا تؤثر إلا على قلب لين كلين الزبد أو أشد، أما القلب القاسي فلا يهتم بها، تمر عليه وكأنه حجارة، وكان عمر – رضي الله عنه – إذا قرأ هذه الآية يمرض حتى يعُاد، يمرض من شدة ما يقع على

قلبه من التأثر حتى يُعاد، فإذا كان واقعاً وليس له دافع أليس الجدير بنا أن نخاف؟ بلى والله، هذا هو الجدير

{ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ } يدفعه، ولا مانع يمنعه، لأن قدرة الله تعالى لا يغالبها

مغالب، ولا يفوتها هارب، ليس له من يدفعه، ليس للمستحق لهذا العذاب إذا وقع ليس له أحد يدفع عنه، من يستطيع أن يدفع؟ لا يستطيع أحد أن يدفع عن نفسه فضلاً عن أن يدفع عن غيره {مَا لَهُ مِن دَافِعٍ} لا يرده، ولا يدفعه قبل وقوعه، ولا يرفعه بعد نزوله أي دافع {لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ} [(٥٨) سورة النجم] يعني غير الله –جل وعلا– لا يستطيع شيء لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل،

ثم ذكر وصف ذلك اليوم، الذي يقع فيه العذاب، فقال: { يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا } أي: تدور السماء وتضطرب، وتدوم حركتها بانزعاج وعدم سكون،

{ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا } أي: تزول عن أماكنها، وتسير كسير السحاب، وتتلون كالعهن المنفوش، وتبث بعد ذلك [حتى تصير] مثل الهباء، وذلك كله لعظم هول يوم القيامة، وفظاعة ما فيه من الأمور المزعجة، والزلازل المقلقة، التي أزعجت هذه الأجرام العظيمة، فكيف بالآدمي الضعيف!؟

{ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ } والويل: كلمة جامعة لكل عقوبة وحزن وعذاب وخوف.

ثم ذكر وصف المكذبين الذين استحقوا به الويل، فقال: { الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ } أي: خوض في الباطل ولعب به. فعلومهم وبحوثهم بالعلوم الضارة المتضمنة للتكذيب بالحق، والتصديق بالباطل، وأعمالهم أعمال أهل الجهل والسفه واللعب، بخلاف ما عليه أهل التصديق والإيمان من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة.

{ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا } أي: يوم يدفعون إليها دفعا، ويساقون إليها سوقا عنيفا، ويجرون على وجوههم، ويُدَعُّون بمعنى يدفعون بعنف وشدة إلى نار جهنم دعًّا؛ لأنهم – والعياذ بالله – تمثل لهم النار كأنها سراب، أي كأنها حوض نهر، وهم على أشد ما يكونوا من العطش، فيذهبون إليها سراعاً، يريدون أن يشربوا منها حتى يزول عنهم العطش، فإذا بلغوها وإذا هي النار – والعياذ بالله – فكأنهم – والله أعلم – يتوقفون لئلا يتساقطوا فيها، فيدعُّون إليها دعًّا، أي يُدفعون بعنف وشدة فيتساقطون فيها – أجارنا الله من ذلك ويقال لهم: {هذه النار التى كنتم بها تكذبون} كانوا في الدنيا يقولون: لا بعث

ولا جزاء، ولا عقوبة ولا نار، وإنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع ولا بعث، فيقال لهم توبيخاً على هذا الإنكار.

ويقال لهم توبيخا ولوما: { هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ } فاليوم ذوقوا عذاب الخلد الذي لا يبلغ قدره، ولا يوصف أمره.

{ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ } يحتمل أن الإشارة إلى النار والعذاب، كما يدل عليه سياق الآية أي: لما رأوا النار والعذاب قيل لهم من باب التقريع: { أهذا سحر لا حقيقة له، فقد رأيتموه، أم أنتم في الدنيا لا تبصرون } أي: لا بصيرة لكم ولا علم عندكم، بل كنتم جاهلين بهذا الأمر،

سورة الطور ٢

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ *كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ سورة الطور:١٧-٢٠.

أخبر تعالى عن حال السعداء فقال: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ، وذلك بضد ما أولائك فيه من العذاب والنكال.

فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ أي: يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك.

(ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) أي : وقد نجاهم من عذاب النار ، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة التي فيها من السرور ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر

فعوامل السعادة للإنسان أربعة :

- مسكن يؤيه
- فراش في هذا المسكن
- طعام وشراب
- مؤنس يؤنسه كزوجة وذرية

فهذه الأربع هي عوامل سعادة الإنسان في الحياة ، لكن جمع الله - جل وعلا - للإنسان هذه العوامل على أحسن ما يكون

كل نعيمٍ في الدنيا ففي الجنة ما هو أكمل منه ولا تشابه بين النعيمين إلا في الاسم أحياناً فقط، وأما الحقيقة فبينهما أعظم مما بين السماء والأرض من الفرق، قال ابن عباس رضي الله عنهما:" ليس في الجنة شيء يشبه ما في الدنيا إلا الأسماء " .

(أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ).

فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ السجدة:١٧ .

أما المسكن : قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- :(الجنة بناؤها لبنة من فضه، ولبنة من ذهب، وملاطها المسك الأذفر - شديد الرائحة-، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران)..

قال الله -عز وجل- :وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ الصف: من الآية١٢ .

ليس فيها خبث، ولا هذه الروائح من المجاري ولا الأوساخ، ولا آثار الانسدادات، بيوت أهل الجنة خيام ليست من القماش، لكنها من اللآلئ المجوفة، كما قال -عليه الصلاة والسلام- :(إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلا للمؤمن، فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضا). .

فهل رأيت يا عبد الله لؤلؤةٍ في الدنيا متراً في مترٍ فضلاً أن ترى هذه الستين ميلا.

وأنهار الدنيا يعتريها ما يعتريها من التلوث بالنجاسات، والأتربة والملوحة، بل الجفاف والانحسار وأما أنهار الجنة فهي مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ

عَسَلٍ مُّصَفًّى ١٥ سورة محمد ، والكوثر حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب ريحاً من المسك، وماءه أحلى من العسل، ولونه أشد بياضاً من الثلج، إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ الكوثر:١.

كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا الهنيء الذي لا تنغيص فيه ولا كدر ولا نكد،تفسير سورة الطور- المجلس الأول – د. محمد بن عبد العزيز الخضيري – دورة الأترجة القرآنية

لوا من هذه الخيرات والطعوم والمأكولات والفواكه واللذائذ والطيبات واشربوا من هذه المشروبات المتنوعة التي لا حدود لها (فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى) وكل واحدة أنهار وكل كأس يختلف عن الكأس الذي قبله، في لذة وحبور لا يستطيع أحد أن يصفها ولا أن يتصور شيئاً منها لأن النبي e قال: «ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر» فكل الذي تتصوره أنت أو يتصوره الناس مجتمعين ما يخطر على بالهم ذلك الذي أعدّه الله عز وجل للمؤمنين في الجنة. (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا) يعني بهناءة ولذة بخلاف ما يحصل في الدنيا فإن الإنسان قد يأكل فلا يتهنّى بما يأكل وقد يشرب فلا يتهنّى بما يشرب وإن كان الذي يشربه لذيذاً أو الذي يأكله لذيذاً. (بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أي بسبب ما كنتم تعملون

مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ) يقال إن المؤمن يجلس متكئاً وعنده زوجاته وأولاده وأهله يتحدث إليهم سبعين عاماً ما يلتفت من تمام النعمة، قال فإذا حانت منه التفاتة رأى زوجات أخريات فيقلن إن لنا منك نصيب يعني هذه نعمة أخرى يُحصّلها المؤمن في الجنة نسأل الله سبحانه وتعالى الكريم من فضله.

(وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ) الحور العين: المشهور أن الحَوَر هو شدة البياض

(عِينٍ) أي واسعات العيون أي عيونهن واسعة، وسِعَةُ العين تمتدح بها المرأة بالجمال.

في الجنة فإن الله –سبحانه وتعالى- جعلهن مطهرات أخلاقهن مطهرة، قال –سبحانه وتعالى- :عُرُباً متحببات لأزواجهن بالأخلاق الحسنة،أَتْرَاباً في سن واحدة.

أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ . من الحيض والنفاس والمني والبول والغائط والمخاط والروائح الكريهة.ليس فيهن عيب ولا دمامة، حسان في الشكل حسان في الأخلاق

قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ الرحمن: من الآية٥٦. لا تنظرن إلى غير زوجها.

حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ الرحمن:٧٢.لا يخرجن منها.

إنما هي معدّة لزوجها، تستقبله في كل حين، فإذا جاءها لا يمكن أن يراها غائبة في عملٍ خارج البيت، أو في زيارات أو هنا وهناك في صفقٍ في الأسواق وغيرها، بل هي مستعدة لزوجها في غاية القوة والنشاط له، قال –عليه الصلاة والسلام– : (وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلَأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا —خمارها—عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) .

فهذا النصيف والخمار فما بالك ببقية اللباس .

وإذا كان أهل الدنيا يعجزون ويكسلون في الجماع وكذلك المرأة إذا حاضت ونفست لا تؤتى، وما فيها من الدم ليكون في ذلك ابتلاء، وأما في الجنة فقد قال –عليه الصلاة والسلام– :(يُعْطَى أَحَدَهُمْ قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالشَّهْوَةِ وَالْجِمَاعِ). .

فيا خاطبَ الحسناء إن كنت راغبا فهذا زمان المهر فهو المقدمُ

وأقدِم ولا تقنع بعيش منغص فما فاز باللذات من ليس يقدمُ

وفي هذا تحميس بالغ لأهل الدنيا ليعملوا، ونساء الدنيا إذا دخلن الجنة خير من الحور العين بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن وحجابهن وصبرهن.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) وهذا من تمام نعمة الله عز وجل على المؤمن في الجنة فإنك لا تذوق النعمة وحدك فإن كنت مؤمناً فإنك لا تأتي يوم القيامة ثم لا تستمتع بهذه النعمة مع أهلك وأقربائك بل إن الله U يُمتعك بأن يجعل أهلك وأقربائك وذريتك في درجتك إذا كنت في درجة عالية وهم دونك لكن بشرط أن يكونوا من المؤمنين فالله عز وجل يُلحِق بهم الذرية وهذا من بركة طاعة الآباء أن الله عز وجل يرفع إليهم الأبناء من دون أن ينقص من أجر الآباء شيء لأنه قال (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) أي رفعناهم إلى مقامهم (وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) أي ما ننقصهم من عملهم شيئاً يعني ما تكون المسألة بالموازنة نعطي هؤلاء الأبناء شيئاً وننقص الآباء شيئاً فيكونوا في منزلة وسط، لا، يبقى الأب في منزلته العالية في الجنة ويُرفع إليه الأبناء بشرط أن يكونوا من أهل الإيمان وهذا من بركة الآباء على الأبناء. فإن قيل وهل للأبناء بركة على الآباء؟ قيل نعم، ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه الحاكم وغيره أن النبي e قال: «إن الرجل لتُرفع درجته في الجنة » وفي رواية «إن الرجل الصالح لتُرْفع درجته في الجنة فيقول: يا رب أنّى لي هذا؟» من أين لي هذا؟ «فيقال:

باستغفار ولدك لك» فهذا من بركة الأبناء على الآباء. فليسعى كل واحد منا يا إخواني إلى تربية الأبناء الصالحين الذين ينتفع بهم بعد موته. قال النبي e: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية، أو علم يُنْتفع يه، أو ولدٌ صالح يدعو له» ولذلك من أعظم الأعمال التي يقدّمها الإنسان ومن أعظم السعي أن تسعى في صلاح أبنائك فإنهم إذا صلحوا كنت أنت أول المستفيدين والمنتفعين بصلاحهم، نسأل الله أن يصلح لنا ولكم النيّة والذرية.

قال الله عز وجل (كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)) لما ذكر الفضل ذكر العدل ولكنه يذكر الفضل في مقام الفضل ويذكر العدل في مقام العدل. قال (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) رفعنا الذرية إليهم وما نزّلنا الآباء إلى منزلة الذرية بل رفعنا الذرية إلى مكان الآباء وهذا فضل من الله سبحانه وتعالى. يأتي السؤال وهل إذا أساء الآباء أيضاً ضرّ الأبناء إساءة الآباء؟ قال (كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)) لو كان في حال السوء أو حال الذنب والمؤاخذة فإن ذنب الأب عليه لا يتعدى إلى أبنائه. لكن إذا كان في حال الحسنة والطاعة فإن أثر تلك الطاعة ينتقل إلى الأبناء فيُرْفع الأبناء إلى مقام الآباء فهذا مقام فضل وهذا مقام عدل، قال (كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)) أي مُرْتَهن ومُجَازى ومُحَاسب

طعام أهل الجنه

وأما في الجنة فهو طعام طيب وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ٢١ سورة الواقعة، وكذلك الفواكه وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ سورة الواقعة، وكذلك أنواع اللذات وتنوع المطاعم بلا ضرر، والأكل يُعطى فيه شهوة مائة، ويجلس بعض الأغنياء اليوم على سفرةٍ تمد فيها أنواع الأطعمة فلا يمد يده إلا إلى شيء يسير ونظره بحسرة .

طعام الجنة قطوفه دانية، لا يحتاج إلى عناءٍ في تحصيله، وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً الإنسان:١٤ .

قال مجاهد: قريبة الأغصان، يتعاطاه فيدنو القطف إليه والعنقود ويتدلى الغصن كأنه سامع مطيع كما قال الله وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ٥٤ سورة الرحمن ، والثمر هو الجنى، إن قام ارتفعت بقَدْره، وإن قعد تَدَلَّتْ له حتى ينالها، وإن اضطجع تَدَلَّت له حتى ينالها، فذلك قوله:تَذْلِيلا

وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ١٥ سورة الإنسان، كما صبرتم على صحاف الدنيا من الذهب والفضة فلم تأكلوا منها فخذوها الآن حلالاً هنيئاً مرئياً

خدم الدنيا وخدم الجنة

يطوف عليهم فيها الخدم، الخدم في الدنيا وما أدراك ما الخدم، فهذه تضع السم وأخرى تؤذي أولاده وتلك تكيد لامرأته وهذه تسرق من أموال أهل البيت وأخرى تهرب بأموال الكفيل وهذه تُدخِل أجنبياً إلى البيت وهذه تأخذ من نجاساتها فتضع في طعام أهل البيت لأن الساحر علمهم في تلك البلد أن وضع ذلك يجلب محبة أهل البيت وتعلقهم بها، وأنواع من الإيذاء، خدم أهل الجنة، وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً الإنسان:١٩. خدم أهل الجنة، يستقبلونهم سلام عليكم، خدم أهل الجنة يطوفون عليهم بهذه الأكواب وهذه الأباريق، يطوفون عليهم بأنواع الأطعمة يخدمونهم بأنواع الألبسة، شراب الدنيا فيه منغصات كثيرة، فمنه ما يسبب المغص في البطن وارتفاع السكري، وأنواع الآفات، لكن أشربة الجنةمِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّىً محمد: من الآية١٥.

يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً الإنسان: من الآية٥.

آنية الدنيا تنكسر، آنية الدنيا تصدأ، آنية الدنيا تضيع وتسرق وتتلف، آنية الدنيا لها أعمار مثل أعمار العباد تنتهي، وأما آنية الجنة، وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا الإنسان:١٥.قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ ١٦ سورة الإنسان ، القوارير: زجاجية شفافة، فكيف الجمع بين الفضة والشفافية، عجب ليس في الدنيا شيء من هذا أبداً،قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ١٦ س

وأما أدنى أهل الجنة منزلة فهل ترون -يا عباد الله- من ملك الدنيا بأجمعها، وحكم الأرض كلها؛ فإن ملك أدنى أهل الجنة منزلة أعظم من ملكه، وصدق الله العظيم العليم إذ يقول: (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً) [الإنسان:٢٠]، وروى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إني لأعلم آخر أهل النار خروجا منها وآخر أهل الجنة دخولا الجنة، رجل يخرج من النار حبوا فيقول الله تبارك وتعالى له: اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى فيقول الله تبارك وتعالى له: اذهب فادخل الجنة قال: فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع

فيقول: يا رب وجدتها ملأى فيقول الله له: اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها أو إن لك عشرة أمثال الدنيا قال: فيقول: أتسخر بي أو أتضحك بي وأنت الملك " قال ابن مسعود رضي الله عنه لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه قال: فكان يقال ذاك أدنى أهل الجنة منزلة رواه الشيخان.

سورة الطور ٣

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾

وهذا من تمام نعمة الله عز وجل على المؤمن في الجنة فإنك لا تذوق النعمة وحدك فإن كنت مؤمناً فإنك لا تأتي يوم القيامة ثم لا تستمتع بهذه النعمة مع أهلك وأقربائك بل إن الله يُمتعك بأن يجعل أهلك وأقربائك وذريتك في درجتك إذا كنت في درجة عالية وهم دونك لكن بشرط أن يكونوا من المؤمنين (كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)) لما ذكر الفضل ذكر العدل ولكنه يذكر الفضل في مقام الفضل ويذكر العدل في مقام العدل. قال (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) رفعنا الذرية إليهم وما نزّلنا الآباء إلى منزلة الذرية بل رفعنا الذرية إلى مكان الآباء وهذا فضل من الله سبحانه وتعالى. يأتي السؤال وهل إذا أساء الآباء أيضاً ضرّ الأبناء إساءة الآباء؟ قال (كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)) لو كان في حال السوء أو حال الذنب والمؤاخذة فإن ذنب الأب عليه لا يتعدى إلى أبنائه. لكن إذا كان في حال الحسنة والطاعة فإن أثر تلك الطاعة ينتقل إلى الأبناء فيُرْفع الأبناء إلى مقام الآباء فهذا مقام فضل وهذا مقام عدل

(وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ) أمدهم الله تعالى، أي: أعطاهم عطاء مستمراً إلى الأمد وإلى الأبد بفاكهة وهي ما يتفكه به من المأكولات، {ولحم مما يشتهون} أي: مما يشتهونه ويستلذونه، الفاكهة واللحم مما يشتهون وكيف يشتهون، ماذا تشتهي؟ تُعطى. تشتهي سمكاً يأتي إليك، تريده مقليّاً أو مشوياً أو على أي صفة يأتيك كما تشتهيه

قدّم الفاكهة على اللحم في هذه الآية وفي سورة الواقعة (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ) لأن الفاكهة ينتفع بها الإنسان إذا تقدّمت على اللحم. وقد أثبت الطب الحديث أن الفاكهة ينبغي أن تقدم على الطعام بأن يأكلها الإنسان قبل الطعام بنصف ساعة

{يتنزعون فيهاكأساً} أي: أن أهل الجنة ينازع بعضهم بعضاً على سبيل المداعبة، وعلى سبيل الأنس والانشراح {كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم} والمراد بها كأس الخمر، ومعنى {لا لغو فيها ولا تأثيم} أنه لا يحصل بها ما يحصل من خمر الدنيا، فإن خمر الدنيا يحصل بها السكر والهذيان، ولكن خمر الآخرة ليس فيها لغو ولا تأثيم، أي: لا يلغو بعضهم على بعض، ولا يتكلمون بالهذيان، ولا يعتدي بعضهم على بعض

فالأماني في أهل الجنة مدركةٌ تنال بإذن الله عز وجل ورحمته، هذا واحدٌ من أهل الجنة كما يخبر النبي صلى الله عليه وسلم يستأذن ربه في الزرع -يريد أن يزرع في الجنة- فيأذن له، فما يكاد يلقي البذر حتى يضرب بجذوره الأرض، ثم ينمو ويكتمل وينضج في نفس الوقت، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتحدث وعنده رجلٌ من أهل البادية: (إن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع، فقال له: ألست فيما شئت؟ -يعني: ما شئت من النعيم وألوان الراحة- قال: بلى، ولكن أحب الزرع، فبذر، فبادر طرف نباته -يعني: نموه أسرع من النظر- واستواءه واستحصاده، فكان أمثال الجبال، فيقول الله تعالى: دونك يا ابن آدم! فإنك لا يشبعك شيء، فقال الأعرابي الذي كان جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم يسمع الحديث: والله لا تجده إلا قرشياً أو أنصارياً، فإنهم أصحاب زرعٍ يا رسول الله! وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم).

خدم الجنة

{ويطوف عليهم} أي: يتردد على أهل الجنة وهم على سررهم متكئين {غلمان لهم} أي: غلمان مهيئون لهم في الخدمة التامة المريحة {كأنهم} أي: الغلمان {لؤلؤ مكنون} أي: محفوظ عن الرياح وعن الغبار وعن غير ذلك مما يفسده، وإذا كان هذا في الغلمان والخدم فكيف بمن يخدم؟! كيف بمن يخدم؟! إذا كان هذا هو الخادم كأنه لؤلؤ مكنون فكيف بمن يخدم؟!، يعني سئل النبي -عليه الصلاة والسلام- عن هذا السؤال فقال: ((إن صاحب الجنة بالنسبة لخادمه كمثل القمر ليلة البدر))

{وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ} [الطور:٢٥ - ٢٨]. (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) أي يأتي كل واحد إلى صاحبه مقبلاً عليه، (يَتَسَاءَلُونَ) أي يسأل بعضهم بعضاً عما كانوا عليه وما وصلوا إليه تلذذاً واعترافاً بالنعمة". (قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ) أي كنا في الدنيا خائفين ألا نصل إلى هذا النعيم وأن نُرمى في ذاك الجحيم، تذكرون يا جماعة عندما كنا ندعوا الله في صلواتنا وندعوا الله في مجالسنا وفي حِلَق الذكر عندما كنا نلتقي فيها كيف كنا نذكر عذاب الله فنخافه ونذكر جنة الله فنرجوها ونتمناها؟ تذكر يا فلان عندما كنت معي في ذلك المجلس وكنا نتذاكر صفة الجنة في سورة الطور وتذكر لنا من صفتها كذا وكذا؟ الحمد لله اليوم ها نحن فيما كنا نتحدث فيه ونذكره.

(قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا) أي بهذا النعيم وسماه منّة لأنه محض تفضّل من الله فهو الذي هيأك للطاعة وأعانك عليها ودلّك ووفقك وهو الذي سددك وأرشدك ثم جازاك بهذا الجزاء وهو المتفضل سبحانه وتعالى بكل شيء. وإلا طاعاتنا لو كانت مقابلة لنِعَم الله علينا في الدنيا ما بلغت تلك النعم، فكيف أن الله سبحانه وتعالى قَبِلَ منا هذا القليل فجعله مكافئاً لتلك النعم ثم كافأنا على ذلك بالجنة العظيمة التي يمتن بها علينا فيقول (فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧)) عذاب النار ذات الريح والهواء الحار الشديد الذي يُحْرق الأبدان والجلود.

(إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ) أي نُكْثر الدعاء (إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)) البَر واسع الفضل الذي سعة فضله لا حدود لها، ومنه اسم البَر الذي نخرج إليه سُمي براً لسعته. ومنه البِر لأنه السعة في العمل الصالح. (إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ) الواسع سبحانه وتعالى (الرَّحِيمُ) الذي رحم عباده فأدخلهم جنته.

آخر من يدخل الجنه

عن عبدالله بن مسعود رضي الله أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: ((آخر من يدخل الجنة رجل، فهو يمشي مرة، ويكبو مرة، وتسفعه النار مرة، فإذا ما جاوزها التفت إليها، فقال: تبارك الذي نجاني منك، لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين، فترفع له شجرة، فيقول: يا رب، أدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها، وأشرب من مائها، فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها؟ فيقول: لا، يا رب ويعاهده أن لا يسأله غيرها، قال: وربه عز وجل يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى، فيقول: أي رب، أدنني من الشجرة لأشرب من مائها وأستظل بظلها، لا أسألك غيرها فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول: لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها؟ فيعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه تعالى يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة، وهي أحسن من الأوليين، فيقول: أي رب أدنني من هذه لأستظل بظلها، وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ قال: بلى، يا رب لا أسألك غيرها — وربه عز وجل يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فإذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة فيقول: أي رب أدخلنيها، فيقول: يا ابن آدم، ما يصريني منك، أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: يا رب، أتستهزئ مني وأنت رب

العالمين؟ فضحك ابن مسعود، فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ فقال: من ضحك رب العالمين، حين قال: أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قادر))
أخرجه مسلم

سورة النجم ١

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ

(٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨))

روى البخاري : "عن عبد الله قال : أولُ سورة أنزلت فيها سَجْدة : والنَّجم ، قال : فسجد رسول الله وسجد من خلفه ، إلا رجلا رأيته أخذ كفًّا من تُراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قُتِل كافرًا ، وهو أمية بن خَلَف" . أي سجد رسول الله وسجد معه المؤمنون والمشركون فما بقي أحد من القوم إلا سجد.

{والنجم إذا هوى} النجم اسم جنس يُراد به جميع النجوم، وقوله {إذا هوى} : لها معنيان، المعنى الأول: إذا غاب، والمعنى الثاني: إذا سقط منه شهاب على الشياطين التي تسترق السمع {ما ضل صاحبكم وما غوى} هذا جواب القسم، ما حاد محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق الهداية والحق، وما خرج عن الرشاد، بل هو في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ، الضلال بمعنى الذهاب عن الحق، ترك الحق بسبب الجهل به غالباً،

وَمَا غَوَى، وإلا فقد يضل الإنسان على علم، لكن يعبر في كل مقام بما يليق، كما في قوله تعالى: غَيرِ المغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ، ففسر الأول باليهود لأنهم عرفوا الحق وتركوه، وفسر الثاني بالنصارى، ضلوا عن الحق لجهلهم،

وقوله: {ما ضل صاحبكم} يخاطب قريشاً، جاء بهذا الوصف لفائدتين:

الأولى: الإشارة إلى أنهم يعرفونه، ويعرفون نسبه، ويعرفون صدقه، ويعرفون أمانته، فهو ليس شخصاً غريباً عنهم حتى يقولوا لا نؤمن به، لأننا لا نعرفه، بل هو صاحبهم الذي نشأ فيهم، فكيف بالأمس يصفونه بالأمين، والآن يصفونه بالكاذب الخائن.

الثانية: أنه إذا كان صاحبهم فإن مقتضى الصحبة أن يصدقوه وينصروه لا أن يكونوا أعداء له.

وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى وليس نطقه صادرا عن هوى نفسه.

{إن هو إلا وحى يوحى} يعني ما القرآن ويدخل فيه السنة،{إلا وحى يوحى} ، أي: وحي من الله – عز وجل – والواسطة بين الله وبين الرسول {علمه شديد القوى} يعني علم النبي صلى الله عليه وسلم هذا الوحي شديد القوى، أي: ذو القوة الشديدة، فهو من إضافة الصفة إلى موصوفها، وهو جبريل عليه

السلام، كما قال الله تعالى: {إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين} فجبريل عليه السلام قوي شديد أمين كريم، لا يمكن أبداً أن يفرط بهذا الوحي الذي نقله إلى محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كما قال تعالى: {نزل به الروح الأَمين على قلبك لتكون من المنذرين} . {ذو مرة فاستوى} المرة: الهيئة الحسنة، فهو ذو قوة، وذو جمال وحسن، وقد رآه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم على صورته التي خُلق عليها له ستمائة جناح قد سد الأفق

وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى وهو أفق الشمس عند مطلعها،**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى** ثم دنا جبريل من الرسول صلى الله عليه وسلم، فزاد في القرب،**فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى** فكان دنوه مقدار قوسين أو أقرب من ذلك. فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى عبده محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى بوساطة جبريل عليه السلام.

مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ما كذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ما رآه بصره.

أن للنبي صلى الله عليه وسلم إسراءً ومعراجاً، فالإسراء ذكره الله في سورة الإسراء.والمعراج ذكره الله في سورة النجم وكلاهما في ليلة واحدة قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين، أو سنة ونصف، اختلف المؤرخون في هذا،

{ما كذب الفؤاد ما رأى} الفؤاد القلب، والمعنى أن ما رآه النبي صلى الله عليه وسلم بعينه فإنه رآه بقلبه وتيقنه وعلمه، وذلك أن العين قد ترى شيئاً فيكذبها القلب، وقد يرى القلب شيئاً فتكذبه العين، فمثلاً قد يرى الإنسان شبحاً بعينه فيظنه فلاناً ابن فلان، ولكن القلب يأبى هذا، لأنه يعلم أن فلاناً ابن فلان لم يكن في هذا المكان، فهنا العين رأت، والقلب كذَّب، أو بالعكس، قد يتخيل الإنسان الشيء بقلبه ولكن العين تكذبه، أما ما رآه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليلة المعراج فإنه رآه حقًّا ببصره وبصيرته، ولهذا قال: {ما كذب الفؤاد ما رأى} بل تطابق القلب مع رؤية العين، فلم يكن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كاذباً فما رآه من الآيات العظيمة في تلك الليلة بل هو صادق، ولكن المشركين كذبوه، وقالوا: كيف يمكن أن يصل إلى بيت المقدس ويعرج إلى السماء في ليلة واحدة، ولهذا قال: {أفتمارونه على ما يرى} والاستفهام هنا للإنكار والتعجب، ومعنى تمارونه أي: تجادلونه بقصد الغلبة، أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى أتكذبون محمدا صلى الله عليه وسلم، فتجادلونه على ما يراه ويشاهده من أيات ربه؟

وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ولقد رأى محمد صلى الله عليه وسلم جبريل مرة أخرى

أي: مرة أخرى حين نزل، والمرة الأولى رأى الرسولُ عليه الصلاة والسلام جبريلَ وهو في غار حراء، رآه على خلقته التي كان عليها، رآه وله ستمائة جناح قد سد الأفق، كل الأفق الذي حول الرسول عليه الصلاة والسلام في حراء انسد من أجنحة هذا الملك الكريم، وهذا يدل على عظمته،

عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى عند سدرة المنتهى- شجرة نبق- وهي في السماء السابعة، ينتهي إليها ما يعرج به من الأرض، وينتهي إليها ما يهبط به من فوقها،

عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى عندها جنة المأوى التي وعد بها المتقون.يستفاد من قوله {المأوى} أن القبور ليست هي المأوى والمثوى، لأن القبور ممر ومعبر، إذ إن وراء القبور بعث، ويذكر أن بعض الأعراب في البادية سمع قارئاً يقرأ قول الله تعالى: {ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر} فقال الأعرابي بفطرته وعربيته: «والله ما الزائر بمقيم، وإن وراء ذلك شيئاً» ، لأن الزائر يزور ويمشي، والقبور يمكث الناس فيها ما شاء الله أن يمكثوا، ثميخرجون منها،

إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى إذ يغش السدرة من أمر الله شيء عظيم، لا يعلم وصفه إلا الله عز وجل. وكان النبي صلى الله عليه وسلم على صفة عظيمة من الثبات والطاعة،

مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى فما مال بصره يمينا ولا شمالا، ولا جاوز ما أمر برؤيته.

فالرسول صلى الله عليه وسلم كان على كمال الأدب في هذا المقام العظيم، لم يلتفت يميناً وشمالاً، ولم يتقدم بصره أكثر مما أذن له فيه، وهذا من كمال أدبه عليه الصلاة والسلام، وجرت العادة أن الإنسان إذا دخل منزلاً غريباً تجده ينظر يميناً وشمالاً في هذا المنزل، وخصوصاً إذا تغير تغيراً عظيماً في هذه اللحظة، لابد أن ينظر ما الذي حدث، لكن لكمال أدب النبي صلى الله عليه وسلم ورباطة جأشه صلوات الله وسلامه عليه وتحمله ما لا تحمله بشر سواه صار في هذا الأدب العظيم، ولهذا قال تعالى عنه: {وإنك لعلى خلق عظيم} .

لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى لقد رأى محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج من آيات ربه الكبرى الدالة على قدرة الله وعظمته من الجنة والنار وغير ذلك.

سورة النجم ٢

قصة الاسراء و المعراج

قَدْ أَتَتْ هَذِهِ الحَادِثَةُ العَظِيمَةُ وَالمعْجِزَةُ البَاهِرَةُ؛ تَسْلِيَةً لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بَعْدَ فَاجِعَتَيْنِ أَصَابَتَاهُ فِي عَامٍ وَاحِدٍ: وَفَاةِ عَمِّهِ الَّذِي كَانَ يَحْمِيهُ، وَوَفَاةِ زَوْجَتِهِ الَّتِي كَانَتْ تُوَاسِيهِ.

لَقَدْ وَقَعَتْ هَذِهِ الحَادِثَةُ بَعْدَ ازْدِيَادِ الِاضْطِهَادِ، وَاشْتِدَادِ الإِيذَاءِ لِنَبِيِّنَا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَقَدْ طَرَدَهُ أَهْلُ الطَّائِفِ، وَرَمَوْهُ بِالحِجَارَةِ حَتَّى أَدْمَوْا قَدَمَيْهِ الشَّرِيفَتَيْنِ، فَخَرَجَ هَارِبًا فَارًّا إِلَى مَكَّةَ دَاعِيًا رَبَّهُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ ضَعْفِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ».

وِفِي مَكَّةَ يُبْصَقُ فِي وَجْهِهِ، وَيُرْمَى سَلَا الجَزُورِ عَلَى ظَهْرِهِ وَهُوَ سَاجِدٌ،

اخْتَلَفَ أَهْلُ السِّيَرِ فِي تَحْدِيدِ سَنَتِهَا وَشَهْرِهَا وَيَوْمِهَا عَلَى أَقْوَالٍ عِدَّةٍ، وَلَيْسَ لِوَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الأَقْوَالِ دَلِيلٌ صَحِيحٌ يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ، وَلَوْ ثَبُتَ تَعْيِينُهَا لَمْ يَجُزْ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَخُصُّوا يَوْمَهَا وَلَيْلَتَهَا بِشَيْءٍ مِنَ العِبَادَاتِ أَوْ الِاحْتِفَالَاتِ لِأَنَّهُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَصَحَابَتُهُ الكِرَامُ لَمْ يَحْتَفِلُوا بِهَا وَلَمْ يَخُصُّوهَا بِشَيْءٍ.

وَلَوْ كَانَ الِاحْتِفَالُ بِهَا أَمْرًا مَشْرُوعًا لَبَيَّنَهُ لَنَا نَبِيُّنَا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَوْلًا أَوْ فِعْلًا، وَلَنَقَلَهُ عَنْهُ أَصْحَابُهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

وتبدأ القصّة عندما نزل جبريل إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — بصحبة ملكين آخرَيْن ، فأخذوه وشقّوا صدره ، ثم انتزعوا قلبه وغسلوه بماء زمزم ، ثم قاموا بملء قلبه إيماناً وحكمة ، وأعادوه إلى موضعه . ثم جاء جبريل عليه السلام بالبراق ، وهي دابّة عجيبة تضع حافرها عند منتهى بصرها ، فركبه النبي – صلى الله عليه وسلم — وانطلقا معاً ، إلى بيت المقدس .

وعند الباب ربط جبريل البراق بالحلقة التي يربط بها الأنبياء جميعاً ، ثم دخلا إلى المسجد ، فصلّى النبي — صلى الله عليه وسلم — بالأنبياء إماماً ، وكانت صلاته تلك دليلاً على مدى الارتباط بين دعوة الأنبياء جميعاً من جهة ، وأفضليّته عليهم من جهة أخرى . ثُمَّ خَرَجَ مِنَ المَسْجِدِ فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَارَ اللَّبَنَ فَقَالَ جِبْرِيلُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ –: اخْتَرْتُ الفِطْرَةَ.

ثم بدأ الجزء الثاني من الرّحلة ، ثُمَّ عَرَجَ جِبْرِيلُ بِالنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي رِحْلَةٍ سَمَاوِيَّةٍ يَقْطَعُ حُجُبَ السَّمَاءِ فِي لَيْلٍ بَهِيمٍ وَظَلَامٍ دَامِسٍ وتجاوز السماوات السبع ، وكان جبريل عليه السلام يطلب

الإذن بالدخول عند الوصول إلى كلّ سماءٍ ، فيؤذن له وسط ترحيب شديد من الملائكة بقدوم سيد الخلق وإمام الأنبياء – صلى الله عليه وسلم – .

انْتَهَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَقِيلَ: مَنْ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَفُتِحَ لَهُمَا. فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَى يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ، إِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ وَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَسَارِهِ بَكَى. فَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِجِبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ وَهَذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ اليَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الجَنَّةِ، وَالأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ.

فَسَلَّمَ عَلْيِهِ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ،

ثُمَّ عَرَجَ بِالنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَرَأَى ابْنَيِ الخَالَةِ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا، فَرَحَّبَا بِهِ وَدَعَوَا لَهُ بِخَيْرٍ.

ثمَّ عَرَجَ بِالنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَرَأَى يُوسُفَ – عَلْيِهِ السَّلَامُ، وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ فَرَحَّبَ بِهِ وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فَرَأَى إِدْرِيسَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ –، فَرَحَّبَ بِهِ وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) [مريم: ٥٧].

ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الخَامِسَةِ، فَرَأَى هَارُونَ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – فَرَحَّبَ بِهِ وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ،

ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَرَأَى مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – فَرَحَّبَ بِهِ وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ. فَلَمَّا جَاوَزَهُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بَكَى مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – فَقِيلَ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَنَّهُ بُعِثَ بَعْدِي وَيَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّا يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي.

ثُمَّ عَرَجَ بِالنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَإِذَا هُوَ إِبْرَاهِيمُ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى البَيْتِ المَعْمُورِ، وَإِذَا هَذَا البَيْتُ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٌ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ: أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ وَأَخْبِرْهُمْ: أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ المَاءِ ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: «سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ».

ثُمَّ عَرَجَ بِالنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهى، وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الفِيلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالقِلَالِ، فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا.

وَفِي هَذَا المِكَانِ رَأَى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم جِبْرِيلَ عَلَى صُورَتِهِ الحَقِيقِيَّةِ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ، يَقُولُ تَعَالَى: (أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى* وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى* إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى* مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى* لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) [النجم: ١٢–١٨].

ثُمَّ انطَلَقَ جِبْرِيلُ بِالنَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حَتَّى انْتَهى بِهِ إِلَى دَاخِلِ الجَنَّةِ فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا المِسْكُ. وَالجَنَابِذُ: هِيَ القِبَابُ.

ثُمَّ انْطَلَقَ بِهِ إِلَى نَهْرِ الكَوْثَرِ؛ فَإِذَا حَافَّتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ المجَوَّفِ، وَإِذَا طِينُ النَّهْرِ مِنَ المِسْكِ، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ جِبْرِيلُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَكَانٍ سَمِعَ فِيهِ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – صَرِيفَ الأَقْلَام «وَهُوَ صَوْتُ مَا تَكْتُبُهُ المِلَائِكَةُ مِنْ قَضَاءِ اللهِ وَوَحْيِهِ».

وَفَرَضَ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – عَلَى نَبِيِّنَا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عِنْدَ ذَلِكَ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ.

فَنَزَلَ نَبِيُّنَا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِهَذَا الأَمْرِ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى انْتَهَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قَالَ: خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ؛ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ؛ فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبِرْتُهُمْ.

فَرَجَعَ نَبِيُّنَا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِلَى رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَسَأَلَهُ التَّخْفِيفَ؛ فَحَطَّ عَنْهُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ، ثُمَّ عَادَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ –: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ.فَلَمْ يَزَلْ نَبِيُّنَا يَرْجِعُ إِلَى رَبِّهِ تَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى قَالَ اللهُ – عَزَّ وَجَلَّ –: «يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً».

ثُمَّ نَزَلَ نَبِيُّنَا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حَتَّى انْتَهَى إِلَى مُوسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: اِرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ».

فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ العَظِيمَةِ رَأَى النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَا يُفْزِعُ القُلُوبَ وَيُبْكِي العُيُونَ، رَأَى أَلْوَانًا مِنَ العَذَابِ الَّذِي يَحْصُلُ لِعُصَاةِ أُمَّتِهِ :

فَرَأَى أَقْوَامًا لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمُشُونَ بِهَا وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ يَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ.

وَرَأَى رِجَالًا تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ فَقَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ أَفَلَا يَعْقِلُونَ.

وَرَأَى شَجَرَةَ الزَّقُّومِ فِتْنَةً وَعَذَابًا لِلظَّالِمِ، شَجَرَةً تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ، رَأَى النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – خَازِنَ النَّارِ مَلَكًا وَإِذَا هُوَ رَجُلٌ يُعْرَفُ الغَضَبُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَامَ عَلَى بَابِ النَّارِ فَرَأَى عَامَّةَ مَنْ دَخَلَهَا مِنَ النِّسَاءِ.

وَرَأَى أَيْضًا عَذَابَ الزُّنَاةِ وَأَكَلَةِ الرِّبَا وَأَكَلَةِ أَمْوَالِ اليَتَامَى ظُلْمًا.

وَأُعْطِيَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ الشَّرِيفَةِ خَوَاتِيمُ سُورَةِ البَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا المقْحِمَاتُ.

وَسَمِعَ أَيْضًا فِي جَانِبِ الجَنَّةِ وَجْسًا أَيْ صَوْتًا خَفِيفًا، فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا بِلَالٌ المؤَذِّنُ، فَقَالَ جَاءَ إِلَى النَّاسِ، قَدْ أَفْلَحَ بِلَالٌ رَأَيْتُ لَهُ كَذَا وَكَذَا.

وَمَرَّ النَّبِيُّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ، فَقَالَ: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذِهِ الرِّيحُ؟ قَالَ: هَذِهِ رِيحُ مَاشِطَةِ بِنْتِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادِهَا.

وبعد هذه المشاهدات ، عاد النبي — صلى الله عليه وسلم — إلى مكّة ، وأدرك أن ما شاهده من عجائب ، وما وقف عليه من مشاهد ، لن تتقبّله عقول أهل الكفر والعناد ، فأصبح مهموماً حزيناً ، ولما رآه أبوجهل على تلك الحال جاءه وجلس عنده ثم سأله عن حاله ، فأخبره النبي — صلى الله عليه

وسلم – برحلته في تلك الليلة ، ورأى أبو جهل في قصّته فرصةً للسخرية والاستهزاء ، فقال له : " أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني ؟ " ، فقال له النبي – صلى الله عليه وسلم – : (نعم) ، فانطلق أبو جهل ينادي بالناس ليسمعوا هذه الأعجوبة ، فصاحوا متعجّبين ، ووقفوا ما بين مكذّب ومشكّك ، وارتدّ أناسٌ ممن آمنوا به ولم يتمكّن الإيمان في قلوبهم ، وقام إليه أفرادٌ من أهل مكّة يسألونه عن وصف بيت المقدس، فشقّ ذلك على النبي – صلى الله عليه وسلم – لأن الوقت الذي بقي فيه هناك لم يكن كافياً لإدراك الوصف ، لكنّ الله سبحانه وتعالى مثّل له صورة بيت المقدس فقام يصفه بدقّة بالغة ، حتى عجب الناس وقالوا : " أما الوصف فقد أصاب " ، ثم قدّم النبي – صلى الله عليه وسلم – دليلاً آخر على صدقه ، وأخبرهم بشأن القافلة التي رآها في طريق عودته ووقت قدومها ، فوقع الأمر كما قال .

وفي ذلك الوقت انطلق نفرٌ من قريش إلى أبي بكر رضي الله عنه يسألونه عن موقفه من الخبر ، فقال لهم : " لئن كان قال ذلك لقد صدق " ، فتعجّبوا وقالوا : " أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ " ، فقال : " نعم ؛ إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة " ، فأطلق عليه من يومها لقب " الصديق " .

سورة القمر ١

(اقتربت الساعة وانشق القمر (١) وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر (٢) وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر (٣) ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر (٤) حكمة بالغة فما تغن النذر (٥))

اقتربت بمعنى قربت، لكن العلماء يقولون: إن زيادة المبنى يدل على زيادة المعنى،يدل على أن القرب قريب جداً، فمعنى اقتربت أي قربت جداً، والساعة هي يوم القيامة، وقد قال الله تعالى فيها: {فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتةً فقد جاء أشراطها} أي: علاماتها، ومن علاماتها بعثة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإن بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام وكونه خاتم الأنبياء دليل على أنه قد قربت الساعة، ولهذا حقق النبي عليه الصلاة والسلام هذا بقوله: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وقال بإصبعه الوسطى والسبابة، والسبابة قريبة من الوسطى ليس بينهما إلا جزء يسير مقدار الظفر، وهذا يدل على قربها.

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنهما أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما وفي رواية الترمذي قال سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم آية فأنشق القمر بمكة شقين فنزلت ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾.من يفلق هذا الجسم العظيم الأفقي العالي إلا رب العالمين – عز وجل –؟! أراهم إياه، ولكن لم ينفعهم، وقالوا: سحرنا محمد،

إن القمر آية عظيمة من آيات الله فهذا الكوكب العظيم بحجمه وشكله ونوره ومنازله ودورته وآثاره في الحياة وقيامه في الفضاء بلا عمد يدل دلالة بليغة على عظمة الخالق جل جلاله وعز كماله وان لهذا الكون إلهاً عظيماً قوياُ قديراً له صفات الكمال والجمال فهذا النظام البديع للقمر والحركة المتزنة له والدقة الكاملة المتكاملة لبزوغه وطلوعه والمنازل المتنوعة والمراحل المختلفة التي يمر بها في كل ليلة من لياليه يبدأ هلالاً وليداً حتى يصير بدراً منيراً وقمراً متكاملاً وما ينشأ عنه من ظواهر الليل والنهار والشروق والغروب والخسوف والكسوف كل هذا وغيره فيه من الدلائل الربانية والمعجزات الإلهية ما يدهش العقول ويحير الألباب ويوجب التأمل يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ويقول ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ

اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ويقول سبحانه ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾.

لقد ذكر الله القمر في ثمان وعشرين موضعاً من القرآن الكريم منها إحدى عشرة آية تحدثت عن خلق الشمس والقمر وسجودهما لله وتسخيرهما في خدمة خلق الله واعتبارهما آيتين من آيات الله و ثلاث آيات تحدثت عن منازل القمر وأطواره ومراحله و آيتان تصفان الشمس والقمر بأنهما حسبانا أي وسيلة لحساب الزمان وآيتان تذكران الفرق بينهما بأن الشمس ضياء والقمر نورا وآيتان يقسم الله فيهما بالقمر ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴾ ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾ وآيتان تتحدثان عن نهاية القمر ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ و آية واحدة تثبت معجزة انشقاق القمر و آية أخرى تشير إلى دوران كل من الشمس والقمر ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ وهناك آيتان تصفان القمر في رؤيتين لنبيين من أنبياء الله عليهما السلام إحداهما في حال اليقظة لنبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ والأخرى في حال المنام لنبي الله يوسف عليه السلام ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾
وقوله: وَإِنْ يَرَوْا آيَةً أي: دليلا، وحجة، وبرهانا يعرضوا أي: لا ينقادون له، بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم، وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ أي: ويقولون: هذا الذي شاهدناه من الحجج سحرٌ سحرنا به.
وَإِنْ يَرَوْا آيَةً فآيَةً نكرة في سياق الشرط فهي للعموم، أيّ آية يرونها يقولوا: سحر مستمر، كما قال الله -عز وجل- في سوره الأنعام: **وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ**
فهم في الوقت الذي يطلبون فيه الآيات إذا رأوا الآية كذبوا بها، **وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ** سورة الحجر: ١٤-١٥ من شده مكابرتهم،
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ أي: كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقلهم.

وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ قال قتادة: معناه: أن الخير واقع بأهل الخير، والشر واقع بأهل الشر. أي: يوم القيامة، فأهل الخير يجدون عاقبة فعلهم من الخير، وأهل الشر يجدون عاقبة فعلهم من الشر

أي: كل أمر لابد له من قرار، فهؤلاء المكذبون قرارهم الذل والخسران في الدنيا، والنار في الآخرة، والنبي صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه أمرهم مستقر بالنصر والتأييد في الدنيا، والجنة في الآخرة، جعلنا الله منهم.

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأَنْبَاءِ أي: من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسل، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب، مما يتلى عليهم في هذا القرآن، **مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ** أي: ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادي على التكذيب.

حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ هذا القرآن الذي جاءهم حكمة عظيمة بالغة غايتها، فأي شيء تغني النذر عن قوم أعرضوا وكذبوا به

ولا شك أن شريعة الله حكمة كلها ومطابقة لما فيه صلاح العباد في معاشهم ومعادهم، وقوله: **{بالغة}** أي: تامة واصلة إلى الغرض المقصود منها

فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ يعني: أي شيء تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة، وختم على قلبه؟ فمن الذي يهديه من بعد الله؟!

وقفة مع أهمية الهداية وأنها من الله وسؤال العبد لها

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُو الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ سورة القمر:٦-٨.

{فتول عنهم} ، الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم تول عن هؤلاء؛ لأنهم معاندون مستكبرون، سوف يأتيهم ما وُعدوا به، وسوف يتحقق لك ما وُعدت به

يقول تعالى: فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضون ويقولون: هذا سحر مستمر، أعرض عنهم وانتظرهم، **يَوْمَ يَدْعُو الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ** أي: إلى شيء منكر فظيع، وهو موقف الحساب وما فيه من البلاء، بل والزلازل والأهوال **خشَّعًا أَبْصَارُهُمْ** أي: ذليلة أبصارهم.هم أذلاء في ذلك اليوم وأضاف ذلك إلى أبصارهم، خشَّعًا أَبْصَارُهُمْ أي: ذليلة أبصارهم؛ لأنه كما قال جماعة من أهل العلم ومنهم كبير المفسرين: إن العز والذل يلوح في عين الإنسان، يعني عين الإنسان يقرأ فيها بعض المعاني،

فالذليل تجد بصره خاشعاً، فأضاف ذلك إلى أبصارهم، وقد جاء هذا مبيناً في آيات من كتاب الله –عز وجل– يصف ذلهم في موقف الحساب

يَخْرُجُونَ مِنَ الأجْدَاثِ وهي: القبور. كما قال الله –عز وجل–: فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ سورة يس: ٥١.

{خشعاً أبصرهم يخرجون من الأَجداث كأنهم جراد منتشر} ، الأجداث هي القبور، والجراد المنتشر هو المنبث في الأرض الذي لا يدري أين وجهه ليس له طريق قائمة، لا يعرف كيف ينتهي، ولكنهم منتشرون، وهذا من أدق التشبيهات، لأن الجراد المنتشر تجده يذهب يميناً ويساراً لا يدري أين يذهب، فهم سيخرجون من الأجداث على هذا الوجه، بينما هم في الدنيا لهم قائد، ولهم أمير، ولهم موجِّه يعرفون طريقهم، وإن كان طريقاً فاسداً **{مهطعين إلى الداع}** يعني أنهم مسرعون خاضعو الأعناق، كالرجل إذا أسرع وركض تجده يقدم رأسه يخضعه، فهم يخرجون من الأجداث مهطعين إلى الداعي، أي مسرعين خافضو رؤوسهم من الفزع والهول والشدة **{يقول الكافرون هذا يوم عسر}** وتأمل قوله: {يقول الكافرون} ولم يقل: يقول الناس، لأن هذا اليوم العسر لا شك أنه في حد ذاته عسر شديد عظيم ولكنه على الكافرين عسير، وعلى المؤمنين يسير، كما قال الله تبارك وتعالى: {وكان يوماً على الكافرين عسيراً} وقال تعالى: {على الكافرين غير يسير} وأما على المؤمنين فهو يسير، ولله الحمد جعلنا الله منهم.

سورة القمر ٢

(كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر (٩) فدعا ربه أني مغلوب فانتصر (١٠) ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر (١١) وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر (١٢) وحملناه على ذات ألواح ودسر (١٣) تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر (١٤) ولقد تركناها آية فهل من مدكر (١٥) فكيف كان عذابي ونذر (١٦) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (١٧)) .

لما ذكر تبارك وتعالى حال المكذبين لرسوله، وأن الآيات لا تنفع فيهم، ولا تجدي عليهم شيئا، أنذرهم وخوفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذبة للرسل، وكيف أهلكهم الله وأحل بهم عقابه.

بدأ الله – عز وجل – بقصص الأنبياء على وجه مختصر في هذه السورة، لكنه مؤثر تأثيراً بالغاً، لو قرأتها بتمهل وتدبر لوجدت أنها مؤثرة جدًّا، كلمات مختصرة لكنها رادعة تماماً

ضرب الله جل وعلا لهم أمثلة في خمس أمم سابقة: قوم نوح، وقوم عاد، وقوم صالح، وقوم لوطوقوم فرعون.

{كذبت قبلهم قوم نوح} ونوح هو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض بدلالة القرآن والسنة، قال الله تبارك وتعالى: {إنا أوحينآ إليك كما أوحينآ إلى نوح والنبيين من بعده}وفي حديث الشفاعة التصريح بأنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض **{كذبت قبلهم قوم نوح}** لم يفصل الله عز وجل هذا التكذيب، لكنه أنزل في ذلك سورة تامة وهي سورة نوح، فصل الله فيها تفصيلاً تامًّا في تكذيبهم وأخذهم،**{فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا}**كرر الفعل الذي هو التكذيب؛ لأن قريشاً تشاركهم فيه في التكذيب فأكده وكرره مرة ثانية؛ ليفهم أن سبب تعذيب وإغراق قوم نوح هو التكذيب، فإذا وجد منكم هذا السبب فالنتيجة حتماً لازمة والسنة الإلهية لا تتغير، نعم قد تتغير طريقة الإهلاك من أمة إلى أخرى لكن الإهلاك حاصل بسبب التكذيب.

{فكذبوا} "عبدنا وهو نوح وصفه الله بالعبودية، لأن العبودية أشرف ألقاب البشر

وقد لبث فيهم نوح عليه الصلاة والسلام ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله، لكنهم كلما دعاهم إلى الله ليغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا قوله، واستغشوا ثيابهم حتى لا يروه، ولا أبلغ من هذا الاستكبار أن يضع الإنسان يده في أذنيه حتى لا يسمع قول الداعي، وأن يستغشي ثوبه فيتغطى به حتى لا يراه **{وقالوا مجنون}** المجنون فاقد العقل الذي يهذي بما لا يدري قالوا: إنه مجنون، وهذه القولة قيلت لكل الرسل، قال الله تعالى: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون}

{وازدجر} أي: زجر زجراً شديداً، والزجر هو النهر بشدة وعنف (لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين) [الشعراء : ١١٦] لم يقتصر هؤلاء المكذبون على أن كذبوا بل كذبوا وزجروا وتوعدوا وسخروا، ولما طال الأمد **{فدعا ربه أني مغلوب فانتصر}** الله أكبر، كلمتان **{أني مغلوب فانتصر}** {فدعاء ربه} قائل: يا رب إني مغلوب لا قدرة ولا طاقة لي بهم، {فانتصر} يعني لي منهم

ولقد دعا أهلاً للإجابة – جل وعلا – فأجاب الله قال: **{ففتحنا أبواب السماء}** كل باب في السماء انفتح مباشرة من غير سحاب، **{بماء منهمر}** أي: منصب صبًّا شديداً، فكان كأفواه القرب، ليس كالذرات المعروفة، بل أشد،

(**وفجرنا الأرض عيونا**) ولم يقل فجرنا عيون الأرض، كأن الأرض كلها كانت عيوناً متفجرة، حتى التنور الذي هو أبعد ما يكون عن الماء لحرارته ويبوسته صار يفور، كما قال الله – عز وجل –:{حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور} وفي هذا من الدلالة على قدرة الله تبارك وتعالى ما لا يخفى، وأن هذه الفيضانات التي تحدث إنما تحدث بأمر الله – عز وجل –، وليست كما قال الطبيعيون: إنها من الطبيعة

{فالتقى الماء على أمر قد قدر}فالتقى الماء أي: ماء السماء والأرض على أمر من الله له بذلك، **قد قدر** أي: قد كتبه الله في الأزل وقضاه، عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين .

{وحملناه على ذات ألواح ودسر} أي: حملنا نوحاً وأهله إلا من سبق عليه القول منهم، وأمره الله تعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ومن آمن معه، وما آمن معه إلا قليل، حمله الله على ذات ألواح ودسر، يعني على سفينة ذات ألواح ودسر، وكان نوح عليه الصلاة والسلام يصنعها، فيمر به قومه ويسخرون منه قال الله عز وجل: {**ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن**

تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم} **{ودسر}** أي: مسامير، وقيل: إن الدسر ما تربط به الأخشاب فيكون أعم من المسامير، لأن الأخشاب قد تربط بالمسامير وقد تربط بالحبال، فالمهم أن توثيق هذه الألواح بعضها ببعض كان قويًّا

تجري بأعيننا أي: تجري بنوح ومن آمن معه، ومن حمله من أصناف المخلوقات برعاية من الله، وحفظ منه لها عن الغرق ونظر ، وكلاءة منه تعالى، وهو نعم الحافظ الوكيل، **جزاء لمن كان كفر** أي: فعلنا بنوح ما فعلنا من النجاة من الغرق العام، جزاء له حيث كذبه قومه وكفروا به فصبر على دعوتهم، واستمر على أمر الله، فلم يرده عنه راد، ولا صده عن ذلك صاد، كما قال تعالى عنه في الآية الأخرى: قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك الآية.

ولقد تركناها آية فهل من مدكر أي: ولقد تركنا قصة نوح مع قومه آية يتذكر بها المتذكرون، على أن من عصى الرسل وعاندهم أهلكه الله بعقاب عام شديد، أو أن الضمير يعود إلى السفينة وجنسها، وأن أصل صنعتها تعليم من الله لرسوله نوح عليه السلام، ثم أبقى الله تعالى صنعتها وجنسها بين الناس ليدل ذلك على رحمته بخلقه وعنايته، وكمال قدرته، وبديع صنعته، **فهل من مدكر** ؟ أي: فهل من متذكر للآيات، ملق ذهنه وفكرته لما يأتيه منها، فإنها في غاية البيان واليسر؟

فكيف كان عذابي ونذر أي: فكيف رأيت أيها المخاطب عذاب الله الأليم وإنذاره الذي لا يبقي لأحد عليه حجة.

ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر أي: ولقد يسرنا وسهلنا هذا القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم، لأنه أحسن الكلام لفظا، وأصدقه معنى، وأبينه تفسيرا، فكل من أقبل عليه يسر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهله عليه، والذكر شامل لكل ما يتذكر به العاملون من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواعظ والعبر، والعقائد النافعة والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن حفظا وتفسيرا، أسهل العلوم، وأجلها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أعين عليه، قال بعض السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فيعان عليه ؟ ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله: فهل من مدكر .

أفلا يليق بنا وقد سهل الله القرآن للذكر أن نتعظ ونتذكر؟ بلى هذا هو اللائق، فهل من مدكر

{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ} يقول: "سهلناه للحفظ وهيأناه للتذكر" فمن يعتذر بأن القرآن صعب عليه، قد يوجد من هذا النوع من يوجد لكنه بسببه، وإلا فالله-جل وعلا- يسر وسهل القرآن، ويوجد عجائز في السبعين والثمانين من تحفظ القرآن، وشيوخ كبار لا يقرؤون ولا يكتبون ويحفظون القرآن؛ لأن القرآن ميسر، لكن لمن لمن يسره الله عليه من المدكرين {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} [(١٧) سورة القمر] متعظ وحافظ، ابذل من نفسك، وتعب في تحصيله، أما أن تسترخي وتتمنى وتخطط ولا تنفذ،

وقفة مع الدعاء

دعاءُ اللهِ وسؤاله والتضرعُ إليه والانطراح بين يدَيه وتفويض الأمر إليه أمانُ الخائفين وملجَأ المضطرِّين وسلوة المناجين، من الذي لاذَ بجنابِه فما عزَّ؟! ومن الذي فوّضَ أمرَه إليه فما رشد؟! ((الدعاء هو العبادة))، (وَقَالَ رَبُّكُمْ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَٰخِرِينَ).

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ [البقرة:١٨٦]

عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله : ((ما مِن مسلمٍ يدعو بدعوةٍ ليس فيها إثمٌ ولا قطيعة رحِم إلا أعطاه الله بِها إحدى ثلاث: إمّا أن يعجّل له دعوتَه، وإمّا أن يدَّخر له، وإمّا أن يكشِف عنه من السوء بمثلَها))، قالوا: إذا نُكثر؟! قال: ((اللهُ أكثَر)) رواه الإمام أحمد في المسند.

وقال -صلى الله عليه وسلم-: "إِنَّ اللهَ -تعالى- حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَستَحِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيهِ يَدَيهِ أَن يَرُدَّهُمَا صِفرًا خَائِبَتَينِ".

فيَا من تكالبَت عليه الهموم والغموم، وضاقت عليه الأرضُ بما رحُبت، أينَ أنت من سؤال الله، أينَ أنتَ من سؤال الله ورجائه؟! ويا مَن أرهقته الأمراضُ وأغرقته الديون، أين أنتَ مِن دعاءِ الغنيّ الكريم؟! ويا مَن أثقلته المعاصي والذنوب، أينَ أنتَ مِن غافرِ الذنب وقابل التّوب؟! ويا مَن غشيَه الخوف والقلق، تطلّعْ إلى السّماء فعند الله الفرَج.

فِي هَذَا الشَّهرِ الكَرِيمِ، فَبَينَ أَيدِيكُم **الثُّلُثُ الأَخِيرُ مِنَ اللَّيلِ،** حَيثُ يَنزِلُ رَبُّ العَالمِينَ إِلى السَّمَاءِ الدُّنيا نُزُولاً يَلِيقُ بِذَاتِهِ -سُبحَانَهُ-، وَيُنَادِي خَلْقَهُ: هَلْ مِن سَائِلٍ فَأُعطِيَهُ؟ هَل مِن مُستَغفِرٍ فَأَغفِرَ لَهُ؟ هَل مِن تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيهِ؟ هَل مِن دَاعٍ فَأُجِيبَهُ؟

وَبَينَ أَيدِيكُم **السُّجُودُ في الصَّلَوَاتِ المَكتُوبَةِ، وفي قِيَامِ اللَّيلِ**، وَأَقرَبُ مَا يَكُونُ العَبدُ مِن رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ،

بَينَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ وَقتٌ لِلدُّعَاءِ المستَجَابِ، يَقُولُ -صلى الله عليه وسلم-: "إِذَا نَادَى المنَادِي فُتِحَت أَبوَابُ السَّمَاءِ، وَاستُجِيبَ الدُّعَاءُ". وَيَقُولُ -صلى الله عليه وسلم-: "الدُّعَاءُ بَينَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ مُستَجَابٌ فَادعُوا".

وَفي آخِرِ سَاعَةٍ مِن يَومِ الجُمُعَةِ وَقتُ إِجَابَةٍ، قَال -صلى الله عليه وسلم-: "يَومُ الجُمُعَةِ ثِنتَا عَشرَةَ سَاعَةً، مِنهَا سَاعَةٌ لا يُوجَدُ عَبدٌ مُسلِمٌ يَسأَلُ اللهَ فِيهَا شَيئًا إِلاَّ آتَاهُ اللهُ، فَالتَمِسُوهَا آخِرَ سَاعَةٍ بَعدَ العَصرِ".

أَتَهزَأُ بِالدُّعَاءِ وَتَزدَرِيهِ *** وَمَا تَدرِي بِمَا صَنَعَ الدُّعَاءُ؟

سِهَامُ اللَّيلِ لا تُخطِي وَلَكِنْ *** لَهَا أَمَدٌ وَلِلأَمَدِ انقِضَاءُ

سورة الذاريات: ١٠-٢٣.

والسماء ذات الحبك (٧) إنكم لفي قول مختلف (٨) يؤفك عنه من أفك (٩) قتل الخراصون (١٠) الذين هم في غمرة ساهون (١١) يسألون أيان يوم الدين (١٢) يوم هم على النار يفتنون (١٣) ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون (١٤))

{قتل الخراصون} {قتل} كثير من المفسرين يفسرها بلعن، واللعن هوالطرد والإبعاد عن رحمة الله، {الخراصون} جمع خراص، وهو الذي يتكلم بالظن والتخمين والارتياب والشك، لأنه منغمر في الجهل والسهو والغفلة، ولهذا وصفهم بقوله: {الذين هم في غمرة ساهون} أي في غمرة من الجهل، قد أحاط بهم الجهل من كل جانب، {ساهون} : غافلون، لا يحاولون أن يقبلوا على ما أنزل الله على رسله – عليهم الصلاة والسلام – ومن جهلهم أنهم {يسئلون أيان يوم الدين} ، سؤال استبعاد وإنكار **يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣)ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)** يوم الجزاء، يوم يُعذَّبون بالإحراق بالنار، ويقال لهم: ذوقوا عذابكم الذي كنتم به تستعجلون في الدنيا.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ *كَانُوا قَلِيلا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ سورة الذاريات: ١٥-٢٣.

{إن المتقين في جنات وعيون} المتقون هم الذين اتقوا الله، والتقوى ترد في القرآن الكريم على وجوه متعددة: بالوصف تارة، وبالفعل تارة، وبالأمر تارة، وتارة تكون مضافة إلى الله، وتارة تكون مضافة إلى العقوبة وغير ذلك، مما يدل على أن التقوى شأنها عظيم في الإسلام، وليست التقوى قولاً يقال باللسان،

بل هي قول يتبعه فعل وتطبيق، فإن سألتم ما هي التقوى؟ قلنا: التقوى كلمتان: فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ((التقوى هي الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والقناعة بالقليل ، والإستعداد ليوم الرحيل)).

قال ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى : ((اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ)) (آل عمران :١٠٢) أن يطاع فلا يعصي ويذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر.

وقال طلق بن حبيب رحمه الله : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله

سئل أبوهريرة رضي الله عنه عن التقوى فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك ؟قال : نعم ، قال : فكيف صنعت؟ قال : إذا رأيت الشوك عزلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه ، قال : ذاك التقوى .

خل الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقي

واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].فهذه الآية دلت على أن الغاية الكبرى من هذا الصيام هو حصول تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فالصائم الذي لم يحقق تقوى الله في صيامه قد خسر الثمرة من هذا الصيام الذي لم يشرعه الله لمجرد الامتناع عن الطعام والشراب والشهوة قال : ((من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه))

آخذين ما آتاهم ربهم أي: آخذين ما أنعم ومنَّ الله به عليهم في الجنان.

إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ ، أي: في الحياة الدنيا، **مُحْسِنِينَ** أي يؤدّون العمل بإحسان. وحقيقة الإحسان قد أخبر عنها النبي e في الحديث المشهور حديث عمر أو حديث جبريل عندما سأله رسول الله e قال: «ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»

والإحسان كما يكون في معاملة الخالق يكون أيضاً في معاملة المخلوق ولذلك جاءت الآيات مبيّنة الإحسان مع الخالق والإحسان مع المخلوق فقال الله (كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) **هذا إحسان**

في معاملة الخالق (وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) هذا إحسان في **معاملة الخالق** (وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) هذا إحسان في **معاملة المخلوق**،

{كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون} أي لا ينامون إلا قليلاً: وماذا يصنعون في هذه اليقظة؟ يصنعون ما ذكره الله تعالى في سورة المزمل: {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطآئفة من الذين معك} . فهم ليسوا يسهرون على اللهو واللغو، أو يستيقظون على مثله، ولكنهم يقل نومهم للتفرغ لطاعة الله عز وجل، **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا** سورة السجدة:١٦

وقال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– المدينة انجفل الناس إليه، فكنت فيمن انجفل، فلما رأيت وجهه –صلى الله عليه وسلم– عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: (يا أيها الناس، أطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام).

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر –رضي الله تعالى عنهما– قال: إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: (إن في الجنة غرفاً يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها)، فقال أبو موسى الأشعري –رضي الله تعالى عنه–: لمن هي يا رسول الله؟ قال: (لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وبات لله قائما والناس نيام).

{وبالأَسحار هم يستغفرون} .الأسحار: جمع سحر، وهو آخر الليل، {هم يستغفرون} ، يعني يسألون الله المغفرة، وهذا من حسن عملهم وعدم إعجابهم بأنفسهم، وكونهم يشعرون بأنهم وإن اجتهدوا فهم مقصرون، فيستغفرون الله بعد فعل الطاعة جبراً لما حصل فيها من خلل، ويشرع في نهاية العبادات أن يستغفر الإنسان ربه مما قد يكون فيها من خلل، فبعد الصلاة يستغفر الإنسان ربه ثلاثاً،

وهذا مما يدل على معرفتهم بأنفسهم، وأنهم يرون أنفسهم مقصرين، خلافاً لما يفعله بعض الناس الآن إذا تعبد لله تعالى بأدنى عبادة شمخ بنفسه وأدل على الله تعالى بها، وظن أنه من عباد الله الصالحين، صحيح أن الإنسان ينبغي أن يرجو ربه إذا أنعم الله عليه بطاعة أن يقبلها، لكن كونه يرى أنه قد أتم كل شيء. فهذا يخشى أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

(إن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيعطى سؤله؟ حتى يطلع الفجر).

وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخباراً عن يعقوب –عليه السلام–: أنه قال لبنيه: سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ قالوا: أخرهم إلى وقت السحر.

{وفي أموالهم حق للسآئل والمحروم} في أموالهم كلها سواء الأموال الزكوية، أو غير الزكوية فيها حق للسائل والمحروم، إذا أتاهم سائل أعطوه، وإذا رأوا محروماً أي ممنوعاً من الرزق، وهو الفقير أعطوه، فمالهم قد أعدوه لما يرضي الله – عز وجل – من السائلين والمحرومين وغير ذلك من الإنفاق المشروع.

وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ أي: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما جُبلوا عليه من الإرادات والقُوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحِكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه؛ ولهذا قال: **وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ، قال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة.

الآيات التي في الأرض والآيات التي في الأنفس لا يمكن حصرها، ولو بقي الناس يعددون هذا لاستغرق منهم أوقاتاً طويلة، وكلما أمعن الإنسان النظر ودقق ظهر ولاح له أشياء وأشياء عجيبة،

{وفي السماء رزقكم وما توعدون} ذهب كثير من العلماء أن المراد بالرزق هنا المطر، لأن الله تعالى قال: {هو الذي يريكم ءاياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب} . وسمي المطر رزقاً؛ لأنه سبب للرزق، فإذا أنزل الله المطر أخرجت الأرض الماء والمرعى، متاعاً لنا ولأنعامنا، وهذا رزق، كم من ناس يكون رزقهم على ما ينزل من المطر من الزروع والحشيش والمياه وغيرها،

(**فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون**) يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء ، كائن لا محالة ، وهو حق لا مرية فيه ، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون.

سورة الواقعة

(إذا وقعت الواقعة (١) ليس لوقعتها كاذبة (٢) خافضة رافعة (٣) إذا رجت الأرض رجا (٤) وبست الجبال بسا (٥) فكانت هباء منبثا (٦) وكنتم أزواجا ثلاثة (٧) فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة (٨) وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة (٩) والسابقون السابقون (١٠) أولئك المقربون (١١) في جنات النعيم (١٢))

الواقعة : من أسماء يوم القيامة ، سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها ، كما قال : (فيومئذ وقعت الواقعة) [الحاقة : ١٥]

(**ليس لوقعتها كاذبة**) أي : ليس لوقوعها إذا أراد الله كونها صارف يصرفها ، ولا دافع يدفعها ، كما قال : (استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله) [الشورى : ٤٧] ، وقال : (سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع) [المعارج : ١ ، ٢]

(**خافضة رافعة**) أي : تخفض أقواما إلى أسفل سافلين إلى الجحيم ، وإن كانوا في الدنيا أعزاء . وترفع آخرين إلى أعلى عليين ، إلى النعيم المقيم ، وإن كانوا في الدنيا وضعاء، فكم من رجل مرتفع في هذه الحياة الدنيا يذل ويهان في الآخرة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر يطؤهم الناس بأخفافهم)

(**إذا رجت الأرض رجا**) أي : حركت تحريكا فاهتزت واضطربت بطولها وعرضها . **{رجاً}** أي: رجًّا عظيماً، وأنت تصور أنك ترج إناء فيه ماء كيف يكون اضطراب الماء فيه، فالأرض يوم القيامة ترج بأمر

الله – عز وجل –، وهذا كقوله تعالى: {إذا زلزلت الأَرض زلزالها} وقوله تعالى: {يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم}

وبست الجبال بسا أي: فتتت.

فكانت هباء منبثا فأصبحت الأرض ليس عليها جبل ولا معلم، قاعا صفصفا، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ،{ويسئلونك عن الجبال فقل نسفها ربي نسفاً ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترىفيها عوجاً ولا أمتاً}

{وكنتم أزواجاً ثلاثة}كنتم أيها الخلق أزواجا ثلاثة أي: فينقسم الناس يوم القيامة ثلاثة أقسام لا رابع لها **{فأصحاب الميمنة مآ أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة مآ أصحاب المشئمة والسابقون السابقون}**

ثم فصل أحوال الأزواج الثلاثة، فقال: **فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة** تعظيم لشأنهم، وتفخيم لأحوالهم.

وأصحاب المشأمة أي: الشمال، ما أصحاب المشأمة تهويل لحالهم.

والسابقون السابقون أولئك المقربون أي: السابقون في الدنيا إلى الخيرات، هم السابقون في الآخرة لدخول الجنات. المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أُمروا، كما قال تعالى: وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ سورة آل عمران:١٣٣، وقال: سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ سورة الحديد:٢٢، فمن سابقَ في هذه الدنيا وسبق إلى الخير كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان

أولئك الذين هذا وصفهم، المقربون عند الله، في جنات النعيم، في أعلى عليين، في المنازل العاليات، التي لا منزلة فوقها.

{أولئك المقربون} ذكر منزلتهم قبل ذكر منزلهم، وكما يقال: الجار قبل الدار، وكما قالت امرأة فرعون: {رب ابن لى عندك} بدأت بالجوار {بيتاً في الجنة} وهنا قال: {أولئك المقربون} قبل أن يبدأ بذكر الثواب؛ لأن قربهم من الله – عز وجل – فوق كل شيء، جعلنا الله منهم {أولئك المقربون في جنات النعيم} أي في هذا المقر العظيم الذي فيه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأضاف الجنات إلى النعيم، لأن ساكنها منعم في بدنه، ومنعم في قلبه

وهؤلاء المذكورون **ثلة من الأولين** أي: جماعة كثيرون من المتقدمين من هذه الأمة وغيرهم. **وقليل من الآخرين** . وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة في الجملة على متأخريها، لكون المقربين من الأولين أكثر من المتأخرين.تظهر هذه الآية فضيلة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، (خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)،**وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة** في آخر السورة وقت احتضارهم

فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ سورة الواقعة:٨٣-٨٧

في قوله: **فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنزلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**

روح " أي: راحة وطمأنينة، وسرور وبهجة، ونعيم القلب والروح، لأن المؤمن وإن كان يكره الموت لكنه يستريح به، لأنه يبشر عند النزع بروح وريحان، ورب غير غضبان، فيسر ويبتهج ولا يكره الموت حينئذ بل يحب لقاء الله – عز وجل –، وهذا لا شك راحة له من نكد الدنيا ونصبها وهمومها، **وريحان** وهو اسم جامع لكل لذة بدنية، من أنواع المآكل والمشارب وغيرهما، وقيل: الريحان هو الطيب المعروف، فيكون من باب التعبير بنوع الشيء عن جنسه العام .

وجنت نعيم جامعة للأمرين كليهما، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيبشر المقربون عند الاحتضار بهذه البشارة، التي تكاد تطير منها الأرواح فرحا وسرورا.

كما قال تعالى: **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم**

وقد فسر قوله تبارك وتعالى: لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة أن هذه البشارة المذكورة، هي البشرى في الحياة الدنيا.

{إن هذا لهو حق اليقين} أي: إن هذا المذكور لكم، وهو انقسام الناس إلى هذه الأقسام الثلاثة **{لهو حق اليقين}** أي: اليقين المتحقق المتأكد وصدق الله – عز وجل – لا يمكن أن يخرج الناس عن هذه

الأقسام الثلاثة.ولهذا قال تعالى: **فسبح باسم ربك العظيم** فسبحان ربنا العظيم، وتعالى وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا.

قال ابن عثيمين رحمه الله : هذه السورة لو لم ينزل في القرآن إلا هي، لكانت كافية في الحث على فعل الخير وترك الشر، فقد ذكر الله تعالى في أولها يوم القيامة {إذا وقعت الواقعة} ثم قسم الناس فيها إلى ثلاثة أقسام: السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، ثم ذكر الله في آخرها حال الإنسان عند الموت، وقسم كل الناس إلى ثلاثة أقسام: مقربون، وأصحاب يمين، ومكذبون ضالون.

سورة الحديد

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .

لما نزلت هذه الآية: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض؟ "قال: (نعم، يا أبا الدحداح) قال أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي، وله حائط فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها قال: فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، فقال: اخرجي، فقد أقرضته ربي –عز وجل– وفي رواية: أنها قالت له: رَبح بيعك يا أبا الدحداح، ونقلت منه متاعها وصبيانها، وإن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: (كم من عَذْق رَدَاح في الجنة لأبي الدحداح)، وفي لفظ: (رب نخلة مدلاة، عروقها دُرٌّ وياقوت لأبي الدحداح في الجنة)

من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا وهي النفقة الطيبة التي تكون خالصة لوجه الله، موافقة لمرضاة الله، من مال حلال طيب، طيبة به نفسه، وهذا من كرم الله تعالى حيث سماه قرضا، والمال ماله، والعبيد عبده، ووعد بالمضاعفة عليه أضعافا كثيرة، وهو الكريم الوهاب، وتلك المضاعفة محلها وموضعها يوم القيامة، يوم كل يتبين فقره، ويحتاج إلى أقل شيء من الجزاء الحسن، ولذلك قال:

(يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ

الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ * فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ سورة الحديد:١٢-١٥.)

يقول تعالى مخبرًا عن المؤمنين أنهم يوم القيامة يسعَى نورهم بين أيديهم في عَرصات القيامة، بحسب أعمالهم، كما قال عبد الله بن مسعود في قوله: يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، منهم مَن نوره مثل الجبل، ومنهم مَن نوره مثل النخلة، ومنهم مَن نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نورًا مَن نوره في إبهامه يتَّقد مرة ويُطفَأ مرة،

{**يسعى نورهم بين أيديهم**} أي: أمامهم {**وبأيمانهم**} يكون من الأمام ومن اليمين، أما من الأمام فلأجل أن يقتدي الإنسان به، وأما عن اليمين فتكريماً لليمين يكون بين أيديهم وبأيمانهم، وقوله:

{يسعى نورهم} يفيد أن هذا النور على حسب الإيمان،(يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [التحريم:٨]،

يمشون بنورهم وأيمانهم في ذلك الموقف الهائل الصعب، كل على قدر إيمانه، **ويبشرون عند ذلك بأعظم بشارة، فيقال: بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم** فلله ما أحلى هذه البشارة بقلوبهم، وألذها لنفوسهم، حيث حصل لهم كل مطلوب محبوب ، ونجوا من كل شر ومرهوب، **فإذا رأى المنافقون المؤمنين يمشون بنورهم** وهم قد طفئ نورهم وبقوا في الظلمات حائرين، قالوا للمؤمنين: {**يوم يقول المنافقون والمنافقت للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب**} أي: أمهلونا لننال من نوركم ما نمشي به، لننجو من العذاب، في يوم القيامة يظهر نور للمؤمنين والمنافقين، ثم ينطفىء نور المنافقين، وأنت تعلم أيها الإنسان أن انطفاء النور بعد ظهوره يكون أشد ظلمة مما لو لم يكن هناك نور، ولهذا لو أطفأت النور القوي ثم فتحت عينيك لم تر شيئاً إلا بعد برهة من الزمن، فيكون انطفاء النور بعد وجوده أشد عليهم مما لو لم يكن هناك نور، ثم تكون الحسرة أشد، فيقول المنافقون للذين آمنوا: {**انظرونا نقتبس من نوركم**} ، أي: نأخذ شيئاً قليلاً بقدر الحاجة، {**قيل ارجعوا وراءكم**}وهل هو حقيقة يريدون أن يذهبوا إلى مكان النور، الذي انطفأ فيه النور لعله يتجدد النور، أو أن هذا من الاستهزاء بهم والسخرية؟ الآية محتملة هذا وهذا (ابن عثيمين)

{فضرب بينهم} أي بين المنافقين والمؤمنين **{بسور له باب}** هذا سور عظيم، له باب يمنع من القفز، له باب يدخل منه المؤمنون ويمنع منه المنافقون، **{باطنه فيه الرحمة}** أي: باطن هذا السور فيه الرحمة للمؤمنين، **{وظاهره من قبله العذاب}** للمنافقين، وأنت لا تستطيع أن تتصور هذه الحال، لأن الحال أعظم من أن نتصورها، حال عظيمة **{ينادونهم}** ، المنادى المنافقون، والمنادى المؤمنون، **{ألم نكن معكم}** يعني في الدنيا كنا نصلي معكم ونتصدق ونذكر الله، {قالوا بلى} يعني أنتم معنا، ولكن في الظاهر دون الباطن، ولهذا قالوا: {ولكنكم فتنتم أنفسكم} يعني أضللتموها {وتربصتم} ، انتظرتم بنا الدوائر {وارتبتم} شككتم في الأمر، فليس عندكم إيمان {وغرتكم الأماني} أي: ظننتم أنكم محسنون لأنكم تقولون إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً، نوفق بين المؤمنين والكافرين، وبين الإيمان والكفر، إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا فهم مع المؤمنين، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم، فهم مع الكفار، ظنوا أنهم بهذه المداهنة كسبوا المعركة، فغرتهم الأماني {حتى جاء أمر الله} ، وذلك بموتهم {وغركم بالله الغرور} الغرور هو الشيطان

{فاليوم لا يؤخذ منكم فدية} أيها المنافقون، **{ولا من الذين كفروا}** الذين أعلنوا الكفر فلا فدية لا لهؤلاء ولا لهؤلاء، **{مأواكم النار}** أي: مثواكم ومآلكم النار **{هي مولاكم}** الذي تتولونه، والتي تتولاكم، فهم يتولون النار بعمل أهلها، والنار تتولاهم لأنهم مستحقون لها **{وبئس المصير}** أي: المرجع وهذا تقبيح لها، أعاذنا الله منها،

لما ذكر حال المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات في الدار الآخرة، كان ذلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربها، والاستكانة لعظمته، فعاتب الله المؤمنين على عدم ذلك ، فقال: **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق** أي: ألم يأت الوقت الذي به تلين قلوبهم وتخشع لذكر الله، الذي هو القرآن، وتنقاد لأوامره وزواجره، وما نزل من الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم؟ وهذا فيه الحث على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى، ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلهية والأحكام الشرعية كل وقت، ويحاسبوا أنفسهم على ذلك،

وثبت عن ابن مسعود رضي الله عنه في صحيح مسلم أنه قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتَبنا الله جلَّ وعلا بهذه الآية: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ – إلا أربع سنين.

وهذا العتاب كما تنزَّل على الأئمة الكرام والصحابة العظام، فنحن أحرى وأولى به بعد تطاوُل هذا الزمان،فإن هذا الذي نزل من الحق، يليّن الحجارة إذا نزل عليها، كما قال سبحانه: وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ [البقرة:٧٤] ، وكما قال سبحانه: لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [الحشر:٢١]

وقد روي أن هذه الآية كانت سبباً في هداية طائفةٍ من السلف، ومن أشهرهم الفضيل بن عياض العابد المشهور ، كان يقطع الطرق، ويسطو على البيوت، ويغازل النساء، ويفعل المحرمات والموبقات، ويرعب الناس المارة في الصحاري وفي البراري وفي القفار، فسطا يوماً على منزل من المنازل، وبينما كان يصعد الجدران للسطو على منزل لإيذاء أهله سمع تالياً يتلو هذه الآية: أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ [الحديد:١٦]، وأراد الله له الهداية، فقال: بلى -يا رب!- قد آن أن يخشع قلبي لذكرك. وعاهد الله ألا يعصي بعد ذلك، ولا يسفك دماً، ولا يقطع طريقاً،

ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد أي: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه، ولا ثبتوا، بل طال عليهم الزمان واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم وزال إيقانهم، **فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون** فالقلوب تحتاج في كل وقت إلى أن تذكر بما أنزل الله، وتنطق بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذلك، فإنه سبب لقسوة القلب وجمود العين.

اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون فإن الآيات تدل العقول على المطالب الإلهية، والذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي الأموات بعد موتهم، فيجازيهم بأعمالهم، والذي أحيا الأرض بعد موتها بماء المطر قادر على أن يحيي القلوب الميتة بما أنزله من الحق على رسوله، وهذه الآية تدل على أنه لا عقل لمن لم يهتد بآيات الله ولم ينقد لشرائع الله.

الأعمال التي تسبب النور يوم القيامة:

١- المحافظة على الصلاة : فعن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم : (أنه ذكر الصلاة يوما فقال من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له

نور ولا برهان ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف) رواه الإمام أحمد وصححه الألباني

٢- كثرة المشي إلى المساجد الله (الفجر – العشاء)

قال صلى الله عليه وسلم:"بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة" أي الذي يحيط به من كل جهاته. الله صحيح الترغيب والترهيب)

٣- إسباغ الوضوء أي إتمام غسل الأعضاء كاملة من غير نقص

قال عليه الصلاة والسلام :"إن أمتي يأتون يوم القيامة غراً محجلين من أثار الوضوء " (صحيح الجامع .

أصل الغره : لمعه بيضاء في الجبهة الفرس ، والبياض المراد به النور " هذه الشعره يعرف بها النبي قومه "

٤- الذين يهتمون بصلاة الجمعة الله أهل الجمعة الله :

من تبكير وغسل وحسن استعداد لها وتطيب .

٥- قراءة سورة الكهف يوم الجمعة :" من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة كانت له نوراً يوم القيامة من مقامه إلى مكة (رواه رواه النسائي والطبراني وصححه الألباني "

٦- إذا شاب الإنسان في طاعة الله :قال عليه الصلاة والسلام :" من شاب شيبةً في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة" صحيح الجامع الصغير